لمحات
في علوم القرآن
واتجاهات التفسير

تأليف
الدكتور محمد بن لطفي الصباغ

المكتب الإسلامي

لمحات

في علوم القرآن

واتجاهات التفسير

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الثالثة
١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

المكتب الاسلامي
بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقيًا: اسلاميًا

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وأنزل عليه القرآن هدى للناس وكتاباً مبيناً، فأعجز هذا الكتاب العربيُّ الخالد بُلغاءَ الدنيا وفصحاءها، وقامت على هداه حضارة انسانية عالمية ملأت ربوع الأرض عدلاً ونوراً وسمواً، وستبقى آيات القرآن مصدراً لكل خير وسعادة حتى تقوم الساعة. وصلاة الله وسلامه على هذا الرسول النبيِّ العربيِّ الأميِّ وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته واهتدى بهداه إلى يوم الدين.

أما بعد

فهذه بحوث في القرآن وعلومه، حاولتُ فيها دراسةَ تاريخ القرآن الكريم، والتعريف بإعجازه وقراءاته وعلومه، وبأهم مناهج التفسير، مع التعريف ببعض الكتب المهمة التي تمثل هذه المناهج. بإيجاز شديد يمكنني من إعطاء فكرة واضحة عن أبرز معالم هذه الموضوعات المهمة.

ولا بد لي من تنبيه قراء هذا الكتاب ـ ولا سيما إخواني الطلبة ـ إلى أن هذه المباحث النظرية التي ضمها هذا الكتاب تمثل جانباً، وهناك جانب آخر لا يقل عنه أهمية وشأناً.. إنه دراسة نصوصٍ من القرآن الكريم.

إنَّ عليهم أن يعيشوا في رحاب القرآن، وفي ظلال نصه الجميل، وأن يُعنوا بتلاوته ودراسته دراسةً أدبيةً تتيح لهم أن يتعرفوا مواضع الجمال الفني، وأن يتوصلوا إلى إدراك أسرار الإعجاز. وإن عليهم أن يتوجوا هذه الدراسة بحفظ آيات وسور منه.

وفي هذه الدراسة التطبيقية لآيات القرآن الكريم فوائد من أهمها:

* العيش الكريم في ظلال هذا القرآن، والشعور بالسمو والارتفاع، ذلك أنك ـ عند تلاوتك للقرآن ـ تقرأ كلام الله الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ ليبلغه للناس. إن النفس المسلمة لتشعر بكثير من السمو والارتفاع عندما تتصور أن الله العلي القدير مالك الملك يرسل إليها هذا الكلام، ويحمله إليها خير الخلق محمد صلّى الله عليّه وسلّم.

* ومنها تذوق الجمال وتعرف أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز وفي ذلك تقدير للقرآن الكريم حق قدره، وفيه متعة دونها كل متع الدنيا.

* ومنها صقل الأسلوب، والارتفاع به، والتمكن في اللغة العربية، وذلك بسبب الاتصال بأعلى مستوى في البلاغة والبيان.

وقد سميت هذا الكتاب

« لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير ».

وقسمته قسمين:

القسم الأول: في القرآن وعلومه. ويتألف من ثلاثة أبواب، هي:

الباب الأول: في القرآن. وفيه سبعة فصول.

الباب الثاني: في تاريخ القرآن. وفيه أربعة فصول.

والباب الثالث: في علوم القرآن. وفيه ثلاثة فصول.

والقسم الثاني: في التفسير واتجاهاته. ويتألف من ثلاثة أبواب، هي:

الباب الأول: في أصول التفسير.

الباب الثاني: في تاريخ التفسير، وفيه أربعة فصول.

الباب الثالث: في مناهج التفسير، وفيه ستة فصول.

وأنا اسأل الله أن يسدد خطانا على طريق الحق، وأن يجعلنا ممن يعيش وَفْقَ أحكام القرآن، وممن يجاهد بالغالي والثمين ليحكم القرآن. ويسود حياتنا في جوانبها جميعاً، ويومئذ تعود لنا عزتنا السابقة، وتتبدل أوضاعنا من فُرقة إلى اجتماع، ومن ضعف إلى قوة، ومن هزيمة إلى نصر، ومن تخلُّف إلى تقدم، وأسأله تعالى أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه، والحمد لله رب العالمين.

الرياض في ١٣٩٣/٥/٢٧ هـ

١٩٧٣/٦/٢٨ م

محمد بن لطفي بن عبد اللطيف ياسين الصباغ

أعدت النظر في الكتاب وقدمته للطبع مرة ثانية ١٤٠٥/٧/١٦ هـ

١٩٨٥/٤/٦ م

* * *

مقدمة

بقلم الأستاذ الكبير
الشيخ علي الطنطاوي

كانت العناية على عهدنا بالطلب بالفقه وبالنحو، يرون أن الفقه ثمرة علوم الدين، لأنه يبين الحلال من الحرام، والنحو خلاصة علوم العربية، لأنه يعصم الانسان من الخطأ في الكلام.

وكان الفقه يلقى علينا أحكاماً بلا دليل كمواد القانون، والنحو قواعد بلا شواهد، وكان ذلك هو القاعدة في مناهج المدارس، وفي طرق القراءة على المشايخ، وهما أسلوبان كنت أنا أول - أو من أوائل - من جمع بينهما في الشام، ثم إذا تقدم الطالب قرأ مع النحو البلاغة، ومع الفقه الأصول، وربما قرأ رسالة في المصطلح، وكانوا في ذلك كله يفضلون (لا سيما في الدراسة على المشايخ على الطريقة الازهرية) يفضلون الأراجيز كالألفية، والزبد، والجوهرة، يحفظها الطالب غالباً بلا فهم.

أما علوم القرآن فلم يكن لها ساعة مخصوصة، ولا كتاب معين نقرؤه، وإنما هي أشتات من المسائل، تأتي عرضاً في درس التجويد أو الحديث، وأكثر ما استفدته منها كان من المشايخ الذين جودت عليهم تلاوتي، ولا أقول: إنني صرت من المجودين أو إنني ممن جمع القراءات، وإنما وصلت بحمد الله إلى أن اقرأ قراءة صحيحة.

كان منهم شيخ القراء الجامع على الشاطبية وهو الشيخ محمد الحلواني، وكان في جامع التوبة، في حينا في العقيبة، والشيخ عبدالله المنجد الجامع على الطيّبة، والشيخ عبد الرحيم دبس وزيت، وولده تلميذ أبي وشيخي الشيخ عبد الوهاب، وعما استفدناه من أساتذتنا ومشايخنا كالشيخ صالح التونسي في دروسه العامة في الجامع الأموي، وحينما كان يعلمنا في المدرسة الجقمقية عند الشيخ عيد السفرجلاني معلم الشام نحو سنة ١٣٣٧.

وأول كتاب في علوم القرآن وقعت يدي عليه، هو كتاب التبيان لشيخ مشايخنا الشيخ طاهر الجزائري مربي الطبقة التي سبقتنا من أساتذتنا والذي كان من تلاميذه المقربين محمد كرد علي، ومحب الدين الخطيب، والشيخ سعيد الباني.

وكان من ثمرات جهده وإخلاصه في عمله المكتبة الظاهرية، والمدارس الابتدائية الرسمية، والذي على يده وبمسعاه تم فتح مدارس البنات في الشام، وكانت أول فتاة درست فيها ونالت الشهادة الرشدية وهي فوق الابتدائية وتحت الكفاية (الكفاءة) ومن أوائل من تعلم في هذه المدارس وأخذت منها شهادتها عمتي، وكانت شهادتها عندي وتاريخها سنة ١٣٠٠ هـ في مطلع القرن الماضي، وكان مما تدرسه البنات رسالة صغيرة كانوا يدعونها (علم حال) كما سماها الاتراك، وهي لمفتي الشام الشيخ محمود الحمزاوي، أو محمود أفندي الحمزاوي، كما كنا نلقب من يلي القضاء او ينصب للافتاء. وبقيت عمتي رحمها الله الى آخر عمرها تحفظ هذه الرسالة غيباً، فاذا سألتها ما الفرض؟ قالت: الفرض ما ثبت بدليل قطعي متناً وسنداً. والواجب.... تكرُّها كراً.

وفي هذه الرسالة مسائل من الأصول قليلة، ومسائل كثيرة من الفقه على المذهب الحنفي الذي كان المذهب الرسمي للدولة العثمانية.

ثم رجعت الى الأصل الذي استمد منه الشيخ طاهر وكل من ألّف في

هذا الموضوع من بعده وهو « الإتقان » للسيوطي.

و« الاتقان » ليس معرضاً فيه سلع مرتبة مصفوفة، مصنفة يمتاز جيدها من رديئها، ولكنه مستودع فيه البضائع مركومة ركماً من كل نوع وكل صنف.

وتلك كانت سنة التأليف على عهد السيوطي، فقد بدأت العلوم كما يبدأ كل شيء صغيراً: مسائل تضم الى مسائل، كالسواقي التي تأتي من الينابيع، ثم تكون جدولا، ثم تصير الجداول نهرا، ثم يتجمع ماء النهر في بحيرة كبيرة.

تألفت من هذه المسائل فصول، ومن الفصول كتب، ولو صنعنا صنيع الرياضيين، فصورنا ذلك بخط بياني لرأيناه يصعد ويصعد حتى اذا كان القرن الرابع والخامس كان قد بلغ غاية صعوده، ثم مشى مستقيماً لا يرتفع ولكن لا ينخفض ثم بدأ النزول والانخفاض.

ولكن الله قيض لهذه العلوم قبل أن تبدأ بالانحطاط من يجمع متفرقها ويحشد مسائلها، في كتب شاملة، فكان عصر ما يسمى بـ (دوائر المعارف) أو (المعلمات) وأنا اقول لدائرة المعارف (Encyclopedea): معلم على وزن معجم وأراه أفضل من قولنا معلمة ومعلمات.

فكان منها « الاتقان في علوم القرآن »، و« المزهر في علوم اللغة »، و« نهاية الأرب »، و« صبح الأعشى » وامثالُها. كتب كبيرة يختار منها، ولا تؤخذ كلها كمعرض للثياب فيه الأزياء العربية والأفرنجية، وملابس البدو والحضر، والرجال والنساء، في هذه الكتب الرأي ونقيضه، همُّ مؤلفيها الجمع لا التحقيق والتمييز والتصنيف، واستمرت الحال كذلك حتى انقضى ما يسمونه بعصور الانحطاط، وبدأ عصر النهضة الجديدة فرأينا في الشام من يؤلف الكتب الكثيرة لكن على طريقة « الاتقان » و« المزهر » ككتب شيخ مشايخنا الشيخ جمال الدين القاسمي.

ومن قرأ كتابه « قواعد التحديث » مثلا أو رجع الى مقدمة تفسيره وجد نقولا نادرة قيد أوابدها، وجمع شواردها، لكن لم يؤلف بينها ولم يتخير أرجحها وأقواها، فكأنَّ عصره امتداد لعصر السيوطي، وأسلوبه في التصنيف استمرار لأسلوبه، وهو جمع المعلومات في كتاب واحد، كما يجمع التاجر في المستودع أكبر قدر من السلع والبضائع.

ومن المؤلفين طبقة أعلى من هذه الطبقة، وإن جمع أصحابها قدراً أقل من المعلومات، فرتبوها وصنفوها وميزوا الأصيل منها من المقلد، وفرقوا بين المؤتلف والمختلف.

ودرجة أعلى من المصنفين هم الذين يأخذون هذه المعلومات وهذه الأخبار والمرويات فيدخلها أحدهم ذهنه كما تدخل إبَّالات القطن (البالات) الى مصنع النسيج فتخرج منه قماشاً عليه شارة المصنع، وذلك مثل الغزالي.

وإن كان الغزالي في « الإحياء » قد خلط الصوفية التي انتهى اليها بالطريقة الفكرية التي عاش عليها، فكأنَّ الواحد فيه صار اثنين: الغزالي العالم الذي يحكّم عقله في ترجيح الروايات، وفهم النصوص، وهذا هو عمل العقل فيها، كما قال ابن خلدون.

والغزالي الصوفي الذي يدع الحقيقة الشرعية التي يعرفها، ويعتمد مشاعر قلبه، وما تلقفه عمن جعلهم مشايخه من الصوفية، وهو أعلم وأجل منهم، والعجب كما قلت من قديم أن الغزالي كتب هذا الكلام في الاحياء في القرن الذي توالت علينا فيه المصائب من الشرق والغرب، وجاءنا العدوان القويان الهمجيان يفسدان ديننا ويقوضان أركان حضارتنا: التتار والمغول الشرقيون، والصليبيون الاوربيون، يوم كانت أوروبة يعيش اهلها كالذئاب، في أعماق الغاب، وأتصور أحياناً ماذا يكون حال المسلمين لو أنهم أخذوا بما جاء في « إحياء علوم الدين » فقللوا الاكل حتى أصابهم

الهزال. وربما أدى بهم الى السل، وقصد كلٌّ ركناً مظلماً فعاش فيه عيشة الخمول!! من كان يجاهد في سبيل الله؟ ومن كان يرد هذا العدوان عن دين الله؟ [1]

* * *

ولقد كان في عصر الشيخ طاهر من نحا في التأليف منحى الغزالي[2] وان لم يجاره ولم يدانه، وهو العالم الذي لا يتنبه اليه ويعرف فضله الا القليل، كان له كتابان، من قرأهما ادرك صحة ما قلت عن مؤلفهما، هما كتابه «عمدة التحقيق» [3] وكتابه الذي ألفه عن حكم لبس الحرير، وهو شيخنا الشيخ سعيد الباني، جاء به الاستاذ محمد كرد علي لما فتحت مدرسة الآداب العليا التي دعيت من بعد كلية الآداب سنة ١٩٣٠ م جاءنا به بعدما ذهب شبابه وضعفت همته، فلم يجد الطلاب فيه ما كانوا ينتظرونه منه، ولعلكم تعجبون إذا قلت لكم: إنه كان معنا بين الطلاب من هم اساتذتنا، ومن هم في السن مثل آبائنا، كالشيخ زين العابدين التونسي، والاستاذ عبد الغني الباجقني. جاؤوا لا ليحصلوا علماً ولكن ليحملوا شهادة تنفعهم في وظائفهم.

والشيخ سعيد لم يتزوج، ولم يخلف ولداً، ولكن له ابن أخ يتمنى كل عالم ان يشرف بأن يكون عمه ذلكم هو العالم العامل الصالح الاستاذ عبد الرحمن الباني.

* * *

ثم كثرت المصنفات في علوم القرآن، فكان من أجمعها كتاب العالم الذي صحبته في مصر حينا، الشيخ عبد العظيم الزرقاني مؤلف «مناهل

---

(١) ولا يزال الغزالي ـ لولا هذا ـ المفكر الإسلامي الأول.

(٢) نحا منحى الغزالي في تفكيره العلمي لا في اتجاهه الصوفي.

(٣) طبعه المكتب الاسلامي مجدداً.

العرفان في علوم القرآن» وهو كتاب جليل، ولكنه لا يخلو من استطراد وتطويل، وربما اختار في الامور الخلافية القول المرجوح وترك الراجح، وان كانت هذه الهنات الهينات لا تسلب الكتاب قدره ولا تحط مؤلفه عن منزلته.

والذي يكتب في الأدب يكون حراً في اختيار الموضوع، حراً في اسلوب عرضه، يقول ما يشاء، ويمشي من حيث يشاء، أما الذي يكتب في موضوع ديني فإنه لا يستطيع أن يخرج فيما يكتب عن الجادة المرسومة، ولا ان يجدد في الموضوع لأنه دين، والتجديد فيه رد على صاحبه، فلم يبق من مجال أمام مؤلفي هذه الكتب الا التفاوت في جودة الفهم وحسن العرض. وليس ذلك سهلا، وما كل من فهم مسألة استطاع أن يفهمها، وتبسيط العلم[1] ميزة اختص الله بها قليلا من العلماء، أعرف منهم في عصرنا صديقنا بل استاذنا الشيخ عبد الوهاب خلاف، أول من عبّد للطلبة طريق الوصول الى علم الاصول، وسهله ووضحه، ومنهم صديقنا بل استاذنا أيضاً الشيخ شلتوت، واذا انت رأيت معلماً يلقي المسألة فلا يفهمها التلاميذ فيستوضحونه فيحاول التوصيح فلا يأتي بأكثر مما قال فاعلم انه حفظ المسألة وما فهمها أو هو (بالتعبير الجديد) ما هضمها.

ومن فهم المسألة حقاً استطاع أن يفهمها الناس جميعاً لأنها تصير ملكاً له يتصرف فيها تصرف المالك بملكه. وألفاظ اللغة بين يديه يختار منها ما شاء بارادته، فلا يزال يبدل لفظاً بلفظ وعبارة بعبارة، حتى يجد العبارة التي يوصل بها المسألة الى افهام التلاميذ. كبائع الثياب يأتيك بالثوب لتقيسه، فاذا وجدته عريضاً جاءك بأضيق منه، واذا كان طويلا اتاك بأقصر، حتى تجد الثوب الذي يلائمك ويصلح لك، ومن الامثلة على هذا الطراز من المدرسين الشيخ الشعراوي في احاديثه في التفسير وفي الاعجاز

---

(١) أي جعله بسيطاً بالمعنى العامي لا الفصيح، لأن البسيط في اللغة هو الواسع المبسوط.

وممن اوتوا هذه القدرة على التوضيح، وعلى حل المعقدات، حتى ليعجب السامع منها كيف انحلت عقدها، منهم في مجال الرياضيات والعلوم رجل اذا انا ذكرت الحق في الثناء عليه اتهمت وصرت كالذي يمدح نفسه، رجل يدرس الرياضيات في الجامعة من أربعين سنة يحملون اليه أصعب المسائل في الرياضيات بل وفي العلوم الطبيعية، فيرجعون وقد سهل صعبها وعم فهمها، عنده في ذلك طاقة نادرة، ولكن لا يدري بها الا قليل، لأنه لا يمشي في ضوء الشهرة، بل يختار الممرات المظلمة والحارات الضيقة، هو أخي الدكتور عبد الغني الطنطاوي، جاء المملكة متعاقداً معه، بعدما أحيل على التقاعد (على المعاش) يدرس في جامعة مكة، من أربع سنين، ولكنهم لم يأخذوا منه الا عشرة في المائة مما معه من علم، لا هو يعرض علمه ولا هم يدرون به فيسألونه عنه . وقريب منه في القدرة على الشرح والتوضيح الدكتور محمد الهواري، ومن هذه الزمرة من الاساتذة مؤلف هذا الكتاب الذي اقدم له.

انه أحد (الفرسان الثلاثة) الذين عرفتهم تلاميذ صغاراً وأراهم اليوم ويراهم الناس اساتذة كباراً، عصام العطار، وزهير الشاويش، ومحمد لطفي الصباغ مؤلف هذا الكتاب، ولم ألقبه بعد بالدكتور لأنه ان كان (في الدكاترة) كثرة أخذوا الشهادة بحق واستغلوها لنصرة الحق وضموا اليها العلم، فإن منهم من شهادته كشهادة الزور في المحكمة، تدرَّج آلياً في مراحل الدراسة حتى وصل اليها، فانتهى عندها واكتفى بها، وصارت له مثل الصحيفة الصفراء، التي تجدون خبرها في الكتاب الخالد، والخلود في الدنيا مجازي لا حقيقي، وهو كتاب (كليلة ودمنة).

ان بدأ كثير من الدكاترة بهذه الورقة دخلوا الى الحصول عليها من

الباب فأخذوها بالحق ثم جعلوها بداية طريق العلم، فثابروا على المسير فيه والصعود في مدارجه، فإن منهم من دخل في الليل من النافذة لا من الباب، فاستولوا عليها بالباطل.

أما الشيخ محمد الصباغ فقد نالها بعد ما حمل من العلم ما يغنيه عنها، درس كما يدرس الطلاب في المدارس الى آخر الجامعة، وقرأ على المشايخ في الشام، وصحب الفقيه المفكر (الشيخ صالح العقاد) وكذلك صنع اخونا الدكتور أمين المصري رحمه الله، ذهب يطلبها وهو عالم ازهري، ومدرس ألمعي، فكانت الدكتوراه للمصري وللصباغ قطعة حلوى على مائدته، ان وجدت نفعت ولذت، وان فقدت ما ضرت وما جوعت.

ورب دكتورية (دكتوراه) هي خبز المائدة وادامها ليس عليها غيرها.

* * *

علوم القرآن مما ينبغي لكل مسلم متعلم ان يطلع عليها، أو على كبريات مسائلها، والكتب العصرية فيها كثيرة وفيرة، ومؤلفوها اخوان لي أحبهم وأقدرهم، وأشهد مع ذلك للأستاذ الصباغ من غير أن أشهد عليهم، أدل من يسألني على كتابه ولا أسلب تلك الكتب فضلها، ولا أذم أهلها، لأن كتاب الصباغ ان لم يكن خير هذه الكتب فهو من خيرها، إيجازاً في غير اخلال، وتوضيحا بلا املال، وفيه الشواهد والامثال، ومما سرني منه أنه اختار في المسائل الخلافية ما أرى انا (على قلة علمي) انه الحق، كالخلاف في مسألة رسم القرآن. فالذي أذهب اليه من القديم، وادعو اليه، وألح عليه، هو أن يكتب المصحف للطلبة وللعامة بالكتابة المعروفة (أي بالرسم المألوف).

ولا أقول: إنه أخذ ذلك مني، بل أحمد الله على أن رأيه وافق رأيي، ولقد كتبت من قريب فصلا طويلا فيما كنت أنشر كل اسبوع في جريدة الشرق الأوسط بعنوان (فتاوى) وهذا الفصل ستقرؤونه إن شاء الله قريباً، حينما تجمع هذه الفتاوى في كتاب، والعجب من اتفاق العلماء الآن

من غير دليل لهم من كتاب ولا سنة، ولا نقل عن معصوم، وانما هي أقوال لأئمة يخطئون ويصيبون، على التزام هذا الرسم العثماني، وهم يرون الطلاب يخطئون في قراءة القرآن، والله انزله متلوا لا مكتوباً، وأوجب علينا في بعض الحالات (في الصلاة مثلا) قراءة شيء منه، ولم يلزمنا أبداً بكتابة شيء، حتى ان أحد الاساتذة الكبار، والمحدثين المشهورين، وقد مر ذكره قبل أسطر معدودة قال: إن كتابته توقيفية.

وأنا لم أفهم الى الآن ما معنى هذا الكلام؟ لأن التوقيف هو الوحي، والذين كانوا يكتبون لا يوحى اليهم، والذي كان يوحى اليه ﷺ لا يكتب، فكيف صارت الكتابة توقيفية؟ هذا وفي الفتوى ادلة كثيرة لا مجال الآن لذكرها. على أن الاستاذ الصباغ جزاه الله خيراً وفّى هذا الموضوع حقه، فأفاض فيه وأفاد.

ومن مزايا هذا الكتاب انه لم يدع مؤلفه فيه غامضاً إلا وضحه، ولا شيئاً يتعسر فهمه على الطلاب إلا شرحه، فكان كتابه مفيداً في اللغة والأدب فوق فائدته القراء في موضوعه الذي ألف له.

ومن مزاياه انه ان نقل عن كتاب دل القارىء على الجزء والصفحة المنقول منها، فعرفهم بالمراجع، ومعرفة المراجع علم ربما أخصى (أي تخصص فيه) بعض الباحثين.

حقق الأحاديث وبين درجتها، وآفة كثير من الكتب العصرية انهم يثبتون في كتبهم أحاديث لا يتبينون درجتها، ولا يسمون مخرجها، ولا يتثبتون من صحتها.

وكنت أرجو منه لما تكلم في الاعجاز ان يشير الى كتاب الاستاذ الحمصي الذي قدم له شيخنا الشيخ بهجة البيطار، وطبعه المجمع العلمي (مجمع اللغة العربية في دمشق) إذ لخص في هذا الكتاب مذاهب الأولين في

بيان أسباب الاعجاز، وكنت أرجو أن يشير الى الشيخ الشعراوي وما أعطاه الله من موهبة في الكلام في التفسير وفي وجوه الاعجاز، وانه يجيء بما لم يسبق اليه ولم يلحق فيه، وان كانت له كما يكون لكل انسان زلات، كادعائه أنَّ الهواء جزءٌ من الأرض لقوله تعالى: ﴿سيروا في الأرض﴾ ولم يقل: (سيروا عليها)، وان كان في هذا استدلال فالقاعدة انه لا عبرة بالدلالة في مقابلة النص، والله قد نص في كتابه على ﴿السحاب المسخر بين السماء والأرض﴾ ومعلوم أن السحاب في الهواء، فكان ذلك نصاً على أن الهواء ليس من الأرض، على أن أصل الاستدلال غير مسلم، فاذا نازعك جارك وادعى انك تسير على أرضه، قلت له: بل انا أسير في أرضي، فلا فرق في الاستعمال بين قولي (سرت في الارض) و (سرت على الأرض) وإلا فهم من قولنا (يسير في الأرض) انه يحفر فيها جحراً ويدخل في باطنها، كما تدخل الجرذان.

ومما يؤخذ عليه ذهابه إلى أن آزر عم إبراهيم وليس أباه، كما ذهب الى ذلك كثير من المفسرين، لتأثير الاسرائيليات عليهم، وهذا قول لا سبيل إلى قبوله بعد أن صرح الله بقوله: ﴿واذ قال ابراهيم لأبيه آزر﴾.

ومما كنت أرجوه من الاستاذ المؤلف لما كتب عن مصير المصاحف العثمانية ان يشير الى ما كتب الكوثري عن مصحف دمشق وغيره، واذا كان الاستاذ الصباغ والاستاذ الشاويش والاستاذ الشيخ ناصر الدين يخالفون الكوثري في مسائل فلا تمنع هذه المخالفة أن يأخذوا ما عنده من الصواب، لأن الحكمة ضالة المؤمن. أما مصحف الشيخ عبد الحكيم الافغاني الذي اشار اليه فقد لبثت دهراً من عمري اظن انه قد نسخه عن المصحف العثماني نسخاً كاملا، وما زلت ابحث عنه حتى وجدته عند آل الدوجي (وهم فرع من أسرة الصواف) وكانوا يلازمون الشيخ عبد الحكيم ويخدمونه، فوجدته مكتوباً بالخط العادي.

ولما نشرت مجلة العربي استطلاعاً (ريبورتاج) مصوراً عن استامبول[1]، رأينا صورا لمصحف عثمان الذي كان في جامع دمشق في قبة الخزانة في صحن الجامع من الجهة الغربية، وهي غرفة عالية تحت قبة قائمة على أعمدة ثمانية، ما لها إلا باب صغير، كنا ونحن صغار نسمع ان فيها كنوزاً وأموالا للجامع الاموي، ثم علمنا أن جمال باشا قد فتح بابها ونقل ما فيها إلى استامبول.

ولصديقنا الذي هو بمنزلة أستاذنا الشيخ راغب الطباخ بحث جيد عن مصير هذه المصاحف العثمانية في كتابه (الثقافة الاسلامية).

وكنت أتمنى على الاستاذ الصباغ لما تكلم عن التفسير والتأويل، وذكر أقوال من سوى بينهما ومن فرق، أن يذكر شيئاً ادركته انا على ضعفي وعجزي وقلة علمي هو أن التفسير بيان للمعنى المراد، من فسر بمعنى سفر أي ظهر، وهو باب معروف عند العرب كقولهم يئس وأيس وجذب وجبذ، فان عديّت فعل فسر أي ظهر بالتضعيف قلت: فسّرته تفسيراً، أي كشفته وبينته.

والتأويل من آل الأمر الى كذا أي رجع اليه، فإن عديته قلت: أولته تأويلا. والتأويل تأويلان:

تأويل حال، وتأويل مقال.

والأول أكثر وروداً في القرآن ﴿يوم يأتي تأويله﴾ أي تحقيق الحال الذي يصير اليه.

والثاني ما استقر عليه الاصطلاح حين يفرقون عند الكلام على آيات الصفات بين من يؤول، أي ينقل الكلمات عن معناها الأصلي الظاهري الى

---

(١) والذي سماها اسلامبول أي مدينة الاسلام هو السلطان محمد الفاتح، و(بول): مدينة فهي بمعنى اسلام أباد التي صارت عاصمة باكستان.

معنى آخر، وبين من لا يؤول. ان نؤمن بما جاء من عند الله الا في المواطن التي لا بد فيها من شيء ربما دعي التأويل على توسع في معنى الكلمة، كقوله تعالى في آية واحدة: ﴿استوى على العرش﴾ وقوله: ﴿وهو معكم اينما كنتم﴾ فالاجماع على انها ليست معية ذات، تعالى الله عن ذلك، ولكنها معية علم وبصر وسمع، ومثلها: ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ يمنع ارادة المعنى الأصلي، أي القاموسي في كلمة ﴿فنسيهم﴾ ان النسيان مستحيل على الله ﴿وما كان ربك نسياً﴾.

ولعل منشأ الخلاف ان هذه الكلمات وضعت في لسان العرب قبل نزول القرآن، وأن القرآن نزل بهذا اللسان، وانها وضعت لمعان بشرية أرضية، فلا يجوز ان نفهمها بهذه المعاني لأن الله ليس كمثله شيء، ولأن الخالق لا يشبه المخلوق، ولا يجوز أن نخرجها عن معانيها كلها فنجعلها ألفاظاً معطلة لا تدل على شيء. وفي كتابي «تعريف عام بدين الاسلام» بيان لهذا الذي اقول.

* * *

وبعد فما كان بي حاجة الى كتابة هذه المقدمة، لأن المقدمات انما تكون تعريفاً بكاتب مجهول، أو بحث جديد غير معروف.

والكاتب هنا الاستاذ الصباغ، معروف بفضله الذي يبدو في آثار قلمه، وفي بيانه، الذي يظهر دائماً على لسانه، وفي علمه الذي يشهد به عارفوه، ويستفيد منه تلاميذه، فهو رجل قد جمع سعة الاطلاع، وجودة الالقاء، وسلامة اللغة، والبعد عن اللحن، وهو محدث موفق في الاذاعة والرائي، ومدرس ناجح في الجامعة وفي الجامع، ظاهر المكان، متميز الرأي في الندوات الاسلامية، عامل دائب في حقل الدعوة الى الله، قادر على توضيح المسائل وتقريبها الى الشبان، وهو سليم العقيدة، سلفي المشرب، مثل أخويه عصام وزهير، وفقهم الله جميعاً وقواهم وأكثر من امثالهم.

علي الطنطاوي

القِسْمُ الأول

القرآنُ وعُلومُه

الباب الأول

القرآن

سنتحدث في هذا الباب عن القرآن وتعريفه، ووصفه، وخلوده، ودوره في حفظ لغتنا والابقاء على أمتنا وإصلاح أوضاعنا ونهضتنا، وكونه دستور المسلمين وعن أسماء القرآن وعن ظاهرة الوحي وعن نزوله منجماً وعن آياته وسوره وإعجازه.

الفصل الأول

في تعريف القرآن ووَصفه ودَوره في مَاضينَا ومُستقبلنا

تعريف القرآن الكريم:

القرآن هو كلام الله المعجز، ووحيه المنزل على نبيه محمد بن عبد الله ﷺ، المكتوب في المصاحف، المنقول عنه بالتواتر، المتعبَّد بتلاوته.

ويقتضينا فهم هذا التعريف شرح بعض الأمور:

* فقولنا (كلام الله) إشارة إلى أن هذا القرآن كلام الله. فخرج بهذا القيد سواه من كلام البشر والجن والملائكة.

* وقولنا (المعجز) إشارة إلى أن هذا الكلام أعجز البشر والجنَّ أن يأتوا بمثله، وسنفرد موضوع الإعجاز بفصل خاص إن شاء الله. وخرج بهذا القيد كلام الله الذي عبَّر عنه الرسول بلفظه.

* وقولنا (وحيه المنزل على محمد) مخرج للكلام الإلهي الذي نزل على الأنبياء السابقين، والكلام الالهي الذي ألقاه الله إلى ملائكته ليعملوا به، لا لينزلوه على أحد من البشر. وسنفرد موضوع الوحي بفصل خاص.

ووحي الله كثير، وكلماته لا حصر لها. قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ البَحْرُ مِدَاداً لكلماتِ ربِّي لَنَفِدَ البحرُ قَبْلَ أنْ تَنْفَدَ كلماتُ ربِّي وَلَوْ جِئْنَا

بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أنَّ ما في الأرض من شجرةٍ أقلامٌ، والبَحرُ يَمُدُّهُ مِنْ بعدِهِ سبعةُ أبحرٍ ما نفِدَتْ كلماتُ الله﴾[2].

* وقولنا (المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته) مخرج للأحاديث القدسية، والأحاديث النبوية التي كانت وحياً من الله[3]، وللآيات التي نسخت تلاوتها فلم تعد مكتوبة في المصحف، ولبعض القراءات التي نقلت إلينا بطريق الآحاد.

ومما ينبغي شرحه كلمة (التواتر) التي وردت في التعريف، فالمتواتر هو ما يرويه جمع يستحيل عادة تواطؤهم على الكذب عن جمع مثلهم في كل مراحل السند من أوله إلى آخره[4].

وصف القرآن الكريم:

القرآن ـ كما أسلفنا ـ هو كلام الله المعجز ووحيه المنزل، نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ بلسان عربي مبين، وهو كما جاء في الحديث الضعيف التالي:

« كتاب الله تعالى فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشبع

---

(١) الكهف: ١٠٩

(٢) لقمان: ٢٧.

(٣) ذكرت في كتابي «الحديث النبوي» ١٦٣ـ١٦٥ أن حديث رسول الله ﷺ ينقسم الى قسمين: قسم أوحى الله اليه معناه ولكنه لم ينسبه الرسول الى ربه، وقسم قاله الرسول اجتهاداً. وذكرت أنه لا فرق بينهما من الناحية العملية، لأن على المسلم أن يمتثل أمر الرسول سواء أكان الحديث من هذا القسم أم من ذاك. إذ أنه عليه الصلاة والسلام متصل بالوحي يقره على الصحيح وينبهه على الخطأ.

(٤) انظر تفصيل ذلك في كتابي «الحديث النبوي» ص٢٣٦ـ٢٤٣.

منه العلماء، ولا يَخْلَقُ على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً يَهْدي إلى الرُّشْدِ فآمنَّا بِهِ﴾ (١) من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعي إليه هدي إلى صراط مستقيم» (٢).

خلود القرآن الكريم:

والقرآن الكريم باق ما بقيت الدنيا، يتحدى كل عوامل الافناء والفناء، وذلك بحفظ الله له. فلقد تولى الله تبارك وتعالى حفظه. قال تعالى: ﴿إنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإنَّا لَهُ لَحَافظُونَ﴾ (٣) ولم يكله إلى الناس يحفظونه كما فعل سبحانه بالكتب السابقة قال تعالى: ﴿إنَّا أنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فيها هُدىً ونورٌ، يَحْكُمُ بها النبيُّون الذين أسْلَمُوا للذينَ هادُوا، والربَّانِيُّونَ والأحبارُ بِمَا استُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللهِ وكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاء﴾ (٤).

وبما تضمنه من الحلول المحكمة لكل مشكلات الانسان في كل زمان ومكان، وذلك لكمال شريعته، إذ كان آخر الكتب السماوية ﴿اليومَ أكملتُ لَكُمْ دينَكُم، وأتممْتُ عليكُمْ نِعْمَتِي ورَضيتُ لَكُمُ الإسلامَ ديناً﴾ (٥).

ومن أدلة خلود هذا الكتاب الكريم أن الانسانية رأت كثيراً من الروائع أعجب بها الناس حيناً من الدهر، ثم لم تلبث هذه الروائع أن بليت،

---

(١) سورة الجن: ١ - ٢.

(٢) أخرج هذا الحديث الدارمي ٢/٤٣٥-٤٣٦ و الترمذي ٤/٥٢ عن علي مرفوعا، وسبب ضعفه وجود الحارث بن عبد الله الأعور في سنده، وهو ضعيف. توفي سنة ٦٥ هـ. انظر مقدمة صحيح مسلم فقد أورد تجريحاً له كبيراً ١/١٩ ط عبد الباقي و١/١٤ ط استانبول و«ميزان الاعتدال» ١/٤٣٥ وانظر «الفوائد المجموعة» ٢٩٦ وتعليق العلاَّمة المعلمي اليماني على هذا الحديث.

(٣) سورة الحجر: ٩.

(٤) سورة المائدة: ٤٤.

(٥) سورة المائدة: ٣.

واستنفدت أغراضها، وأصبحت قطعة من الماضي لا تتصل بحاضر الناس بسبب، أو أن يكون قد سحب عليها النسيان بذيله فلم يعد لها وجود على الاطلاق.

كم طرحت حلول! وكم عرضت نظريات! وكم أعلنت مبادىء ادَّعت قدرتها على حل معضلات الحياة!!. ولم تلبث أن عجزت وأفلست وتوارت، ولم يعد يذكرها أحد.

أما القرآن فهو الخالد إلى أبد الدهر، الجديد الذي لا تبلى جدته مهما تقدم الزمان.

دور القرآن في حفظ لغتنا والابقاء على أمتنا:

لقد مرَّت على أمتنا خلال عصور تاريخها الحافل أيام قاسية، ونكبات سود، وكانت بلادها هدفاً لموجات همجية ووحشية، أهلكت الحرث والنسل، ودمرت كل مظهر من مظاهر الحضارة. وكانت هذه البلاد مسرحاً لفتن طائشة عمياء روَّعت الآمنين، وقضت على أسباب الازدهار والاستقرار، وآل الحكم فيها خلال أحقاب طويلة الى عناصر أعجمية لا تعرف العربية ولا يستريح كثير منها الى العرب، وعمَّ أبناء الأمة جهل مطبق وأمية بشعة، فصارت أمتنا الى التفرق والهوان، وتعرضت لغتنا الى الضعف والانحلال.

ولو أن هذا الذي ذكرناه حدث في أمة أخرى لذهب ريحها، ولانقرضت لغتها، ولكن هذا القرآن الكريم بقي الحارس الأمين الذي حفظ على هذه الأمة كيانها، ومقومات وجودها وذاتيتها، وحمى لغتها من الضياع، ولولاه لانقرضت العربية وذابت خلال هاتيك الكوارث التي غشيت هذه البلاد وسكانها أوقاتا طويلة.

إننا لنستطيع أن نقرر بكل ثقة وقوة أن العرب لما ارتقوا في سلم الحضارة

وأبدعوا ما أبدعوا في جوانبها، وأن اللغة العربية هي لغة القرآن، وأن القرآن سبب خلود لغة العرب واستمرار وجودهم.

هذا وقد أدرك أعداؤنا ذلك فجعلوا مهمتهم الأولى أن يصرفوا أبناء المسلمين عن القرآن. جاء في كتاب «الغارة على العالم الاسلامي» قول بالكراف الآتي: (متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذٍ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه)[1].

القرآن أساس الاصلاح وسبب النهضة والمجد وهو دستور المسلمين:

كان القرآن الكريم المشعل الوقاد، والمنار المضيء، ينير لأجيال أمتنا الطريق نحو المجد والرفعة والسعادة وقيادة الدنيا الى الخير والحق.

بل لقد كان القرآن هو الذي يربي الأمة على الأنفة واباء الضيم، وينفخ في أفرادها روح التمرد على الظلم والفساد، ويدفع الأمة الى سلوك السبيل المستقيم ﴿إنَّ الذينَ تَوَفَّاهُمُ الملائكةُ ظالِمِي أنفسِهم قالُوا: فِيمَ كُنْتُمْ. قالوا كُنَّا مُسْتَضْعَفينَ في الأرضِ. قالُوا: أَلَمْ تَكُنْ أرضُ اللهِ واسعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها فَأُولئكَ مَأواهمْ جهنمُ وساءتْ مَصِيراً﴾[2] ومهما تقدمت الأيام، وكرت الليالي فسيبقى القرآن ملاذ هذه الأمة تفزع إليه في الأزمات، فيأخذ بيدها إلى الخير والتقدم والصلاح، ويبلغها السعادة والمجد والفلاح.. بل يبقى الملاذ الأوحد الذي لا تجد سواه في مدلهمات الخطوب.

أنزل الله على عبده ورسوله محمد بن عبد الله هذا الكتاب ليهدي الناس الى الحق، ويخرجهم من الظلمات الى النور، ويسلك بهم طريق الرشاد، فكانت فيه الأسس الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والروحية والخلقية التي يقوم عليها المجتمع الاسلامي.

---

(١) «الغارة على العالم الاسلامي» ط جُدَّة صفحة ٩٣ ـ ٩٤.

(٢) سورة النساء: ٩٧.

* ففي هذا الكتاب الكريم **العقيدة الصحيحة** السليمة التي حلت للانسان أعظم مشكلة تلحّ على وجدانه متمثلة بالسؤال التالي: لماذا خلقت؟ قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (١).

ووضعتْ هذه العقيدة نظرة متميزة للانسان والكون والحياة، فهذا الكون من صنع الله ﴿إنَّما أمْرُهُ إذا أرادَ شَيْئاً أن يقولَ لَهُ كُنْ فيكون﴾ (٢) ﴿الذي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً ما تَرَى في خَلْقِ الرحمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فارْجِعِ البصرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارجعِ البصرَ كرَّتينِ يَنْقَلِبْ إليكَ البصرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٍ﴾ (٣).

فليس الكون عدواً للانسان، وليست الطبيعة خصماً له يصارعه ويغالبه، انما هي من خلق الله، وهي صديق، فالارض مذللة للانسان، وكل ما فيها مخلوق له ﴿هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرضَ ذَلُولاً فامْشُوا في مَنَاكِبِها وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ (٤) ﴿خَلَقَ لَكُمْ ما في الأرضِ جَمِيعاً﴾ (٥).

وقرر القرآن أن الناس مخلوقون من ذكر وأنثى، وموزعون إلى أمم متعددة لتتعارف ﴿يا أيُّها الناسُ إنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنثى وجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وقَبَائِلَ لتعَارَفُوا إنَّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أتْقَاكُمْ﴾ (٦).

والانسان مخلوق من مخلوقات الله، أصله من تراب ﴿واللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ﴾ (٧).

وهو يشارك الحيوان بأنواعه في كثير من صفاته وغرائزه: ﴿وَمَا مِنْ

---

(١) سورة الذاريات: ٥٦.
(٢) سورة يس: ٨٢.
(٣) سورة الملك: ٣ ـ ٤.
(٤) سورة الملك: ١٥.
(٥) سورة البقرة: ٢٩
(٦) سورة الحجرات: ١٣.
(٧) سورة فاطر: ١١.

دابَّةٍ في الأرض ، ولا طائرٍ يَطيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلاَّ أممٌ أمثالُكُم﴾ (١) ولكنه مكرم ﴿ولقد كَرمنا بني آدم﴾ (٢) وخلق في أحسن تقويم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (٣) .

والناس متساوون ولا يتفاضلون إلا بالتقوى ﴿إنَّ أكرمَكُم عِنْدَ اللهِ أتقاكُمْ﴾ (٤) .

والحياةُ الدُّنيا هي وحدها الطريق الى الآخرة ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَالحَاتِ من ذكرٍ أو أُنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فأولئكَ يَدْخُلُونَ الجنةَ ولا يُظْلَمونَ نَقيرا﴾ (٥) ﴿فَذوقُوا بما نَسِيتُم لِقاءَ يومِكم هذا ، إنَّا نَسيناكُم وذوقُوا عذابَ الخُلْدِ بِما كُنْتُم تَعمَلونَ﴾ (٦) .

وقرر القرآن العقيدة السليمة في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فالله جل جلاله واحد ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أحدٌ. اللهُ الصمدُ. لم يَلِدْ ولم يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أحد﴾ (٧) ﴿هُوَ اللهُ الذي لا إله إلا هُوَ المِلكُ القُدُّوسُ السَّلامُ المؤمنُ المهيمنُ العزيزُ الجبَّارُ المتكبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللهُ الخالقُ البارئُ المصوِّرُ لَهُ الأسماءُ الحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ ما في السمواتِ والارضِ وَهُوَ العزيزُ الحكيمُ﴾ (٨) ﴿لَوْ كَانَ فيهما آلهةٌ إلا اللهُ لَفَسَدتا﴾ (٩) .

---

(١) سورة الانعام: ٣٨.
(٢) سورة الاسراء: ٧٠.
(٣) سورة التين: ٤.
(٤) سورة الحجرات ١٣.
(٥) سورة النساء: ١٢٤.
(٦) سورة السجدة: ١٤.
(٧) سورة الاخلاص ١ - ٤.
(٨) سورة الحشر: ٢٣ - ٢٤.
(٩) سورة الانبياء: ٢٢.

ومن يكفر بركن من أركان الايمان فهو كافر ﴿ومَنْ يَكْفُرْ باللهِ وملائكتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ واليومِ الآخرِ فَقَدْ ضَلَّ ضلالاً بعيداً﴾ (١).

والبعث حقٌّ آتٍ لا ريب فيه وهو هين على الله ﴿أيَحْسَبُ الإنسانُ أنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ (٢).

إلى آخر جوانب هذه العقيدة (٣).

* وفي هذا الكتاب الكريم أسس **النظام الروحي** التي حققت للمرء ان يمد شطر ذاته بغذاء مستمر، يتمثل بعبادة الله وذكره والاتصال به (٤)، تبارك وتعالى: ﴿وإذا سألك عِبَادِي عنِّي فإنِّي قريبٌ أُجيبُ دَعْوَةَ الداعِ إذا دَعانِ. فليستجيبُوا لي وَلْيُؤمنُوا بي لعلَّهم يَرْشُدون﴾ (٥) ﴿فاذكُروني أذْكرْكُمْ واشكُروا لي ولا تَكْفُرُونِ﴾ (٦).

* وفي هذا الكتاب الكريم أسس **النظام الاخلاقي** العظيم الذي جاء به الاسلام، فلم يتجاهل طبيعة النفس الانسانية، ولكنه في الوقت نفسه أخذ بهذه النفس الى ان جعلها تحقق المثل التي كانت تتراءى لكثير من الفلاسفة والمصلحين أهدافاً بعيدة.

فقد دعا الى مكارم الاخلاق، وحذر من مساوىء الاقوال والأفعال ولنقرأ قوله تعالى: ﴿إنَّ اللهَ يأمرُ بالعدل والإحسان وإيتاءِ ذي القُرْبَى،

---

(١) سورة النساء: ١٣٦.

(٢) سورة القيامة: ٣ ـ ٤.

(٣) انظر تفصيل ذلك في «الحضارة الاسلامية» للمودودي، و«مبادىء الاسلام» له و«عقيدة المسلم» للغزالي و«تعريف عام بدين الاسلام» للطنطاوي و«نظام الاسلام» لمحمد المبارك و«العقائد الاسلامية» لسيد سابق و«خصائص التصور الاسلامي» و«العدالة الاجتماعية في الاسلام» لسيد قطب.

(٤) انظر كتاب «الاركان الاربعة» لأبي الحسن الندوي.

(٥) سورة البقرة: ١٨٦.

(٦) سورة البقرة: ١٥٢.

وَينْهَى عنِ الفحشاءِ والمنكرِ والبغيِ يعظكُم لعلكم تَذَكَّرُون﴾ [1]. وقوله:

﴿قُلْ تَعالَوا أتْلُ ما حَرَّمَ ربُّكم عَلَيْكُم ألَّا تُشركُوا بِهِ شيئاً، وبالوالدين إحساناً، ولا تقتُلُوا أولادَكُمْ مِنْ إملاقٍ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وإيَّاهُمْ، ولا تَقْرَبُوا الفواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْهَا وما بَطَنَ، ولا تَقْتُلُوا النفسَ التي حرَّمَ اللهُ إلا بالحقِّ، ذلكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لعلَّكُمْ تَعْقلونَ. ولا تَقْرَبُوا مالَ اليتيمِ إلّا بالتي هي أحسنُ حتَّى يَبْلُغَ أشُدَّهُ وأَوْفُوا الكيلَ والميزانَ بالقسطِ، لا نكلِّفُ نفساً إلا وُسْعَها وإذا قُلْتُمْ فاعدِلُوا ولو كانَ ذا قُرْبَى، وبعهدِ اللهِ أَوْفُوا ذلكُم وصَّاكُمْ بِهِ لعلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [2].

وهذه الأخلاق التي دعا اليها القرآن أخلاق إيجابية وعملية وشاملة [3].

* وفي هذا الكتاب الكريم أسس **النظام الاجتماعي** الذي يصوغ الفرد والمجتمع صياغة متكاملة لا يجور احدهما على الآخر [4].

والذي يقيم الأسرة على قواعد متينة من التراحم والتعاون والتكافل مما يحقق لكل فرد من أفرادها السعادة الحقيقية [5].

والذي يقيم المجتمع على أسس العدالة والتكافل الاجتماعي والمساواة والتراحم والتعاون [6] والذي يحدد القواعد العامة في قضايا المعاملات من

---

(١) سورة النحل: ٩٠.

(٢) سورة الانعام: ١٥١ ـ ١٥٢.

(٣) انظر في ذلك: «خلق المسلم» لمحمد الغزالي و«الأسس الاخلاقية» للمودودي و«نظرية الاسلام الخلقية» له وكتاب «الاخلاق في القرآن» لمحمد عبد الله دراز.

(٤) انظر القسم الاول من كتاب «الحجاب» لأبي الاعلى المودودي. و«تنظيم الاسلام للمجتمع» لمحمد أبو زهرة.

(٥) انظر «نظام الاسرة في الاسلام» لمناع القطان و«تفسير سورة النور» للمودودي. و«الأسرة والمجتمع» لعلي عبد الواحد وافي. و«نظرات في الأسرة المسلمة» لمحمد الصباغ.

(٦) انظر في تفصيل ذلك كتاب «العدالة الاجتماعية في الاسلام» لسيد قطب و«التكافل الاجتماعي في الاسلام» لمحمد أبو زهرة.

تجارة وقرض وبيع ومداينة وما الى ذلك[1] من تلك القواعد التي لا تستقيم الحياة إلا بها.

* وفي هذا الكتاب الكريم أسس **النظام الاقتصادي** الذي يحرم الاستغلال والظلم والعدوان، ويحقق الكفاية والعدالة والرفاهية[2].

* وفي هذا الكتاب أسس **النظام السياسي** الذي تقوم عليه دولة الاسلام معتمدة على الشورى والعدل والمساواة وإحقاق الحق وإبطال الباطل، وهدف هذه الدولة إقامة معالم الاسلام والعمل على نشره في الارض[3] ﴿الذينَ إنْ مكنَّاهم في الأرضِ أقامُوا الصلاةَ وآتَوُا الزكاةَ وأمرُوا بالمعروفِ ونَهَوا عن المنكرِ. ولله عاقِبةُ الأمورِ﴾[4].

وهكذا فإن القرآن هو الدستور الذي حوى كل هذه الأسس، وقد أثبتت الأيام والتجارب أنه الدستور الصالح لكل زمان ومكان، وأن أحكامه هي العلاج الناجع لأمراض الحياة، لا اختلاف فيه ولا تناقض وصدق الله العظيم: ﴿ولو كانَ مِنْ عندِ غيرِ اللهِ لوجدُوا فيه اختلافاً كثيراً﴾[5] ﴿إنَّ هذا القرآنَ يهدي للتي هي أقومُ ويُبَشِّرُ المؤمنين الذينَ يعملونَ الصالحاتِ أنَّ لَهُمْ أجراً كبيراً﴾[6].

ومن المفيد أن نشير الى أن القرآن بحكم كونه دستوراً، فقد وردت

---

(١) انظر «المجتمع الانساني في ظل الاسلام» لمحمد أبو زهرة و«في المجتمع الاسلامي» له و«تنظيم الاسلام للمجتمع» له أيضاً. و«التشريع الاسلامي وحاجتنا اليه» لمحمد الصباغ.

(٢) انظر «أسس الاقتصاد في الاسلام والنظم المعاصرة» للمودودي و« معضلات الاقتصاد وحلها في الاسلام» له.

(٣) انظر «نظرية الاسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور» للمودودي.

(٤) سورة الحج: ٤١.

(٥) سورة النساء: ٨٢.

(٦) سورة الاسراء: ٩.

آياته مجملة، وقد تركت كثيراً من التفصيلات الجزئية للسنة، على أن القرآن الكريم في بعض الأمور الهامة يذكر التفصيلات حسماً للنزاع والاختلاف كالإرث[١] واللعان[٢] والطلاق[٣] وما شابهها من الأمور حتى لا يدع مجالاً للفرقة في المجتمع الاسلامي[٤].

أثر القرآن في البيان والفكر:

* كان المستوى الرفيع الذي بلغه القرآن في البيان مثلاً يحتذى بالنسبة لأدباء العربية وبلغائها، فكانت آياته سبباً في النهوض بأساليبهم نهوضاً عظيماً، كما كان لترديد المسلمين لآياته آناء الليل وأطراف النهار أثر كبير في ارتقاء البيان العربي.

* أما أثره في الفكر فلقد كانت آياته البينات سباقة في كل ما يعود على الانسانية والحضارة بالتقدم والرفاهية والسعادة. وما خلت حركة ظهرت بعده من التأثر بذراه السامقة.

وأودُّ ان أختم هذا الفصل بكلمة للاستاذ الزرقاني قال فيها: (وهو ـأي القرآنـ أولاً وآخراً القوة التي غيرت صورة العالم، ونقلت حدود الممالك، وحولت مجرى التاريخ، وأنقذت الانسانية العاثرة، فكأنما خلقت الوجود خلقاً جديداً)[٥].

---

(١) انظر سورة النساء فقد تعرضت آيات منها لتقسيم الارث وهي الآيات ١١ و١٢ و١٧٦.

(٢) انظر الآيات ٦ و٧ و٨ و٩ من سورة النور.

(٣) انظر الآيات المتعلقة بالطلاق في السور الآتية: البقرة الآيات ٢٢٧ و٢٣٢ و٢٣٦ و٢٣٧ و٢٤١ والاحزاب الآية: ٤٩ والطلاق الآيات من ١ حتى ٧.

(٤) انظر كتابنا «الحديث النبوي» ص ١٩ ـ ٢١.

(٥) انظر «مناهل العرفان» ١/٣.

الفصل الثاني

في أسماء القرآن

لهذا الكتاب الكريم أسماء ثلاثة مشهورة وهي: القرآن والكتاب والفرقان، وأشهرها الاسمان الأولان.

وقد أورد أبو المعالي عزيزي بن عبد الملك المعروف بشيذلة[1] المتوفى سنة ٤٩٤ هـ في كتابه «البرهان في مشكلات القرآن» ـ كما نقل ذلك السيوطي ـ خمسة وخمسين اسماً[2]. وبالغ بعضهم فأوصل عددها إلى نيف وتسعين[3].

وعندما ينظر المرء في هذه الأسماء الكثيرة التي ذكروها يتبين له أن معظمها أوصاف مثل: كريم، ومبارك... الخ...

وسنقتصر على ذكر الأسماء الثلاثة التي أوردناها آنفاً ونخصها بالبحث:

* * *

---

(١) انظر ترجمته في «وفيات الأعيان» لابن خلكان ٢٥٨/٣ ط احسان عباس و«طبقات الشافعية» للسبكي ٢٨٧/٣ «وكشف الظنون» لحاجي خليفة ٢٤١/١ و«شذرات الذهب» لابن العماد ٤٠١/٣ و«المنتظم» ١٢٦/٩. وضبط ابن خلكان اسمه بفتح العين. وقال عن (شيذلة): وهو لقب عليه، ولا أعرف معناه مع كثرة كشفي عنه.

(٢) انظر «الاتقان في علوم القرآن» للسيوطي ٥٠/١ و«البرهان» للزركشي ٢٧٣/١.

(٣) انظر «البرهان» ٢٧٣/١ و«مناهل العرفان» ٨/١.

القرآن:

وينطق بهذه الكلمة على وجهين: مهموزة وغير مهموزة.

١ ـ القرآن (مهموزة): مصدر على وزن (فُعْلان) ـ بالضم ـ كالغفران والرُجحان والشُكران.

وفعل هذا المصدر هو (قرأ). وهناك مصادر أخرى غير (قرآن) تقول: قَرأ (قراءة) و (قَرْءاً) و (قُرآناً) وهذه المصادر الثلاثة بمعنى واحد.

ولكلمة (قرآن) معنيان:

أحدهما: مصدري، بمعنى القراءة كما ذكرنا، وقد جاء استعمال (القرآن) بهذا المعنى المصدري في القرآن الكريم وذلك في قوله تعالى: ﴿إنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وقرآنه. فإذا قَرَأْنَاهُ فاتَّبعْ قُرْآنَهُ﴾ (١).

وثانيهما: علم شخصي على ذلك الكتاب الكريم. وهذا هو الاستعمال الغالب، ومنه قوله تعالى: ﴿إنَّ هَذا القُرْآنَ يَهْدي للتي هِيَ أَقْ
وهذا العلم الشخصي مشتق من القراءة وعندئذ يكون المصدر قد ا
اسم المفعول (قرآن) اي (مقروء). وأصل معنى (قرأ) في اللغة:
ومنه: قرأ الماء في الحوض إذا جمعه، ومنه قولهم: قرأت الناقة إذا حملت

وإذا أردنا معرفة العلاقة بين المعنى الاصلي، والمعنى العلمي فإن (قرآن) يمكن أن تكون مصدراً استعملت بمعنى اسم المفعول (مجموع) أو أن تكون مصدراً استعمل بمعنى اسم الفاعل (جامع).

---

(١) سورة القيامة: ١٧ وما بعدها. وانظر «نكت الانتصار» للصيرفي وهو اختصار «الانتصار» للباقلاني ص ٥٦ تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام.

(٢) سورة الاسراء: ٩.

(٣) «نكت الانتصار» للصيرفي ص٥٧ وانظر «الكليات» لأبي البقاء ٣٥/٤ ط دمشق.

أما كونه مجموعاً فلأنه مجموع السور والآيات، أو مجموع المعاني السامية والحقائق العظيمة، والحلول المحكمة لكل مشكلات الانسانية، وصنوف الخير والبر والعدالة، أو لأن الحفظة يحفظونه فهو مجموع. وهكذا فإن المصدر بمعنى التلاوة اطلق على اسم المفعول.

وأما كونه جامعاً فلأنه جامعٌ للسور والآيات، أو جامع للمعاني السامية، والحلول المحكمة، وصنوف الخير.

وبمعنى الجمع والضم اطلق على اسم المفعول او على اسم الفاعل[1]. قال البغوي: [وسُمِّي الكتاب قرآناً؛ لأنه جُمع فيه الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والقصص. وكل شيءٍ جمعته فقد قرأته، ومنه قوله تعالى: ﴿إنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وقرآنه﴾ وقد تحذف الهمزة فيقال: قريت الماء في الحوض، أي جمعته][2].

٢ ـ والقُران (غير مهموزة):

وهناك ثلاثة تخريجات لهذه الكلمة:

أحدها: أن تكون مسهلة من (القرآن) فيرجع القول فيها الى ما سبق ذكره.

ثانيها: أنها ليست مأخوذة من شيء، ومن القائلين بهذا القول الإمام الشافعي رضي الله عنه، الذي كان يرى أنها عَلَم على الكلام المنزل على النبي محمد بن عبد الله ﷺ وأنها ليست مأخوذة من شيء، ويرى أن هذه الكلمة في علميتها مثل التوراة والانجيل.

وقد روى البيهقي والخطيب البغدادي والعبادي وابن الجزري والسيوطي أن الشافعي قرأ على إسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين وكان يقول: القران

---

(١) انظر «النبأ العظيم» للدكتور محمد عبد الله دراز ص٥.

(٢) «شرح السنة» ٤/٤٢٨.

اسم وليس بمهموز ولو أخذ من قرأت لكان كل ما يقرأ قرآناً. بل هو اسم كالتوراة[1].

ثالثها: أنها مشتقة من (قرن)، وذكروا في العلاقة بين المعنى اللغوي والمعنى العلمي أنها اشتقت من (قرن)، لاقتران السور والآيات والحروف فيه، ومن القائلين بذلك الأشعري.

وقال الفراء في العلاقة بين هذين المعنيين: إن كلمة (القران) اشتقت من (قرن)، لأن الآيات قرائن، يصدق بعضها بعضاً، ويشابه بعضها بعضاً.

ملاحظة اولى:

نون (القران) بلا همز نون أصلية، سواء قلنا: إنها علم غير مشتق من شيء أم قلنا هي مشتقة من (قرن). أما نون (القرآن) المهموزة فمزيدة.

ملاحظة ثانية:

تطلق كلمة (القرآن) و (القران) على القرآن كله، وعلى بعضه.

فيقال لمن قرأ المصحف كله: إنه قرأ قرآناً.

ويقال لمن قرأ آية منه أو آيات: إنه قرأ قرآناً[2].

* * *

---

(١) انظر «المستدرك» ٢/٢٣٠ و«مناقب الشافعي» ١/٢٧٧ تحقيق صقر و«تاريخ بغداد» ٢/ ٦٢ و«طبقات الشافعية» للعبادي ص ٢١ و«غاية النهاية في طبقات القراء» لابن الجزري ص ١٦٦ و«الاتقان» ١/٥٠ وانظر فيه الآراء والتخريجات الاخرى، وانظر تعليق أحمد شاكر على «الرسالة» للشافعي ص ١٤ و ١٥ وانظر «الكليات» ٤/٣٤ وما بعدها.

(٢) مناهل العرفان ١/١٥.

الكتاب:

وهو اسم آخر للقرآن، ورد في عدد من الآيات الكريمة. كما في قوله تعالى: ﴿الحمدُ للهِ الذي أنزلَ على عبدِهِ الكِتابَ ولم يجعلْ لَهُ عِوَجاً﴾[1] وقوله: ﴿ذلك الكتابُ لا ريبَ فيهِ هدىً للمتَّقِين﴾[2] وقوله سبحانه: ﴿تلكَ آياتُ الكتابِ﴾[3].

وكلمة (الكتاب) مصدر (كتب يكتب). تقول: كتب يكتب كَتْباً وكتابة وكتاباً.

وهذا المصدر على خلاف القياس، والمصدر المقيس الكَتْب، وقيل: الكتاب اسم مصدر كاللباس[4] ثم أصبحت كلمة (كتاب) علماً على القرآن.

وإذا أردنا ان نربط بين معناها اللغوي المعروف والمعنى العَلَمي كانت هذه الكلمة (الكتاب) مصدراً استعمل بمعنى اسم المفعول (مكتوب).

والكلمة (كَتَبَ) في أصل معناها اللغوي تدل على الجمع، ومنه: كتب الكتيبة، أي جمعها، وكتب النعل والقربة، أي خرزها بسيرين[5] أي جمعها.

وإذا أردنا معرفة العلاقة بين المعنى الاصلي والمعنى العَلَمي فإنَّ كلمة (كتاب) يمكن ان تكون مصدراً استعمل بمعنى اسم المفعول (مجموع). أو أن تكون مصدراً استعمل بمعنى اسم الفاعل (جامع).

---

(١) سورة الكهف: ١.
(٢) سورة البقرة: ٢.
(٣) سورة الشعراء: ٢.
(٤) تاج العروس: مادة كتب.
(٥) اساس البلاغة: مادة كتب.

وترد العلاقة نفسها التي ذكرناها في (القرآن):

فهذا الكتاب جامع للسور والآيات، بل وللمعاني والحقائق والحلول التي يتطلع اليها البشر.

وهذا الكتاب أيضاً مجموعة فيه السور والآيات، بل وتلك المعاني والحلول.

* * *

لماذا سمي القرآن (قرآناً) و (كتاباً)؟

هناك حكمة في إطلاق هذين العلمين (القرآن والكتاب) على كلام الله تعالى ذكرها العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز فقال[1]:

[روعي في تسميته (قرآناً) كونه متلواً بالألسن، كما روعي في تسميته (كتاباً) كونه مدوناً بالأقلام. فكلتا التسميتين من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه. وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد، أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعاً.. فلا ثقة لنا بحفظ حافظٍ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب المنقول إلينا جيلاً بعد جيل على هيئته التي وضع عليها أول مرة.

ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالاسناد الصحيح المتواتر.

وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية بقي القرآن محفوظاً في حرز حريز، إنجازاً لوعد الله الذي تكفل بحفظه حيث يقول: ﴿إنَّا نحنُ نزَّلنا الذكرَ وإنَّا لَهُ لحافظونَ﴾[2] ولم يصبه ما أصاب

---

(١) «النبأ العظيم»: ص ٥ ـ ٧.

(٢) سورة الحجر: ٩.

الكتب السابقة من التحريف والتبديل وانقطاع السند حيث لم يتكفل الله بحفظها، بل وكلها إلى حفظ الناس فقال تعالى: ﴿والربَّانيونَ والأحبارُ بما استُحْفِظُوا مِنْ كتابِ اللهِ﴾ [1]].

الفرقان:

أما (الفرقان) فهو اسم للقرآن أيضاً. وهو مصدر أطلق على القرآن فأضحى عَلَماً.

وقد استعمل بهذا المعنى العَلَمي في قوله تعالى: ﴿تباركَ الذي نَزَّلَ الفُرْقَانَ على عَبدِهِ لِيكونَ للعالمينَ نذيراً﴾ [2].

وهذا المصدر استعمل بمعنى اسم الفاعل، أي أنه كلام فارق بين الحق والباطل [3]. أو استعمل بمعنى اسم المفعول، أي أنه كلام مفروق بعضه عن بعض في النزول أو في السور والآيات [4].

* * *

(١) سورة المائدة: ٤٤.

(٢) سورة الفرقان: ١.

(٣) انظر «نكت الانتصار» للصيرفي ص ٥٧.

(٤) مناهل العرفان: ١/٧ ـ ٨.

الفصل الثالث[1]

في الوحي

الوحي في اللغة:

قال ابن فارس في « مقاييس اللغة »:

الواو والحاء والحرف المعتل أصل يدل على إلقاء علم في إخفاء إلى غيرك، فالوحي الاشارة، والوحي الكتاب والرسالة، وكل ما ألقيته إلى غيرك حتى علمه فهو وحي كيف كان. وكل ما في باب الوحي فراجع الى هذا الأصل الذي ذكرناه.

وقال الراغب الاصفهاني:

أصل الوحي الاشارة السريعة، ولتضمن السرعة قيل: أمر وحي، وشيء وحي، أي عجل مسرع، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب، وباشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة.

قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ على قومِهِ من المحرابِ فأَوْحى إليهم أَنْ سبِّحُوا

---

(١) انظر « مذكرة التوحيد » لعبد الرزاق عفيفي ص ٣٤ و« نظام الاسلام العقيدة والعبادة » لمحمد المبارك ص ١٠١ - ١٠٤ و« النبوة اصلاح تقتضيه رحمة الله » لسعدي ياسين و« النبوة والأنبياء » للندوي.

بُكْرَةً وعَشيًّا﴾ [1] أي أشار إليهم ولم يتكلم.

إذن فمعنى الوحي من الناحية اللغوية: الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه. بحيث يخفى على غيره [2]، ويدخل تحت ذلك أنواع عديدة من الإعلام:

* منها: الإلهام الغريزي، كالوحي إلى النحل ﴿وأوحى ربُّك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يَعْرِشُونَ. ثم كُلِي من كلِّ الثمرات فاسلكي سُبُلَ ربِّكِ ذُلُلاً يخرجُ من بطونها شرابٌ مختلفٌ ألوانُه فيه شفاءٌ للناس. إنَّ في ذلك لآيةً لقومٍ يتفكرون﴾ [3].

* ومنها: إلهام الخواطر بما يلقيه الله في روع الانسان السليم الفطرة الطاهر الروح كالوحي إلى أم موسى ﴿وأوحينا الى أمِّ موسى ان أرضعيهِ فإذا خِفْتِ عليهِ فألقيهِ في اليمِّ، ولا تَخَافي ولا تَحْزَني، إنا رادُّوهُ إليكِ وجَاعِلُوهُ مِنَ المرسلين﴾ [4].

* ومنها: وسوسة الشيطان ﴿وإنَّ الشياطينَ ليُوحونَ إلى أوليائِهم ليُجادِلُوكم﴾ [5] ﴿وكذلكَ جعلْنَا لكلِّ نبيٍّ عدواً شياطينَ الإنسِ والجنِّ يُوحي بعضُهم إلى بعضٍ زُخْرُفَ القولِ غُروراً﴾ [6].

وقد تأتي كلمة (الوحي) بمعنى الأمر [7] كما في قوله تعالى: ﴿وَإذ أوحيتُ إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي﴾ [8].

---

(١) سورة مريم: ١١.
(٢) انظر «الكليات» لأبي البقاء ٣/٥ و ٣٥ ط دمشق.
(٣) سورة النحل: ٦٨ ـ ٦٩.
(٤) سورة القصص: ٧.
(٥) سورة الانعام: ١٢١.
(٦) سورة الانعام: ١١٢.
(٧) «تحفة الأحوزي» ٣٠١/٤.
(٨) سورة المائدة: ١١١.

ووحي الله تبارك وتعالى إلى أنبيائه قد روعي فيه المعنيان الأصليان لهذه المادة: وهما: الخفاء والسرعة[1].

وأوحى، ووحى لغتان، والأولى أفصح وبها ورد القرآن، وقد يطلق الوحي ويراد به اسم المفعول أي (الموحى)[2].

الوحي في الشرع:

ومعنى الوحي في الشرع تكليم الله سبحانه واحداً من عباده بطريقة من طرق الوحي. والوحي أمر غيبي لا نستطيع أن نفصل القول فيه إلا بحدود ما ورد في شأنه من النصوص الشرعية.

إن كل من آمن بوجود الله وقدرته لزمه أن يسلم بموضوع الوحي على انه بديهية مسلمة لا يحتاج إلى مزيد من الأدلة عليه، فلا بُدَّ لنا إذا آمنا بوجود الخالق المدبر من أن نتبع هذا الايمان بالايمان بضرورة رعايته لخلقه، وتدبيره المستمر للكون على ما يرضى، ولا يمكن أن يتأتى ذلك إلا بالوحي.

أما إمكانية الوحي فإن العقل السليم لا يستبعدها، لأن الذي يؤمن بوجود الله ـ سبحانه ـ وكماله لا يصعب عليه الاقتناع عقلياً بإمكانية الوحي من الناحية الواقعية، ذلك أننا نجد في دنيا الواقع أن الانسان العاجز المحدود الطاقة استطاع أن يصل بواسطة بعض التصرفات والبحوث والآلات إلى أن يؤثر في إنسان مثله.. فما القول في قدرة الله تبارك وتعالى على ذلك وعلى أكبر من ذلك؟.

ففي التنويم المغناطيسي نجد إنساناً عاجزاً يقوى على الإيحاء إلى إنسان آخر، وفي محطات الاذاعة يستطيع رجال الاعلام الموهوبون أن يوحوا إلى

---

(١) «الوحي المحمدي» لمحمد رشيد رضا: ٣٧.

(٢) «عمدة القاري» للعيني ١/١٤ و«تحفة الأحوذي» ٤/٣٠١.

نماذج عديدة من الناس ما يشاؤون من الأفكار والآراء. إذا كان ذلك كذلك فإن إيحاء الله إلى عبد من عباده اختاره لهداية الناس لا يمنع العقل السليم إمكان وقوعه، إذا كان صاحب هذا العقل مؤمناً بقدرة الله سبحانه وكماله.

* * *

صور الوحي:

هناك صور للوحي حددتها الآيات الكريمة والأحاديث الصحيحة، نورد بعضها فيما يأتي:

قال الله تعالى: ﴿وَما كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إلاَّ وَحْيَاً، أَوْ مِنْ وَرَاءِ حجابٍ، أو يُرْسِلَ رسولاً فَيُوحيَ بإذنِهِ ما يَشَاءُ. إنهُ عليٌّ حكيمٌ﴾ (١).

وجاء في الصحيحين عن أول بدء الوحي الحديث الآتي:

عن عائشة قالت: «أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع (٢) إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال: اقرأ. قال: «ما أنا بقارىء».

قال: «فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارىء. فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني

---

(١) سورة الشورى: ٥١.

(٢) أي يرجع.

فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارىء. فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق. اقرأ وربك الاكرم﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة فقال: «زملوني زملوني»... الحديث[1].

وسنعدد هذه الصور التي يكون الوحي عليها:

١ ـ يكون الوحي بالرؤيا الصادقة:

وذلك كما في حديث عائشة الذي أوردناه قبل قليل: (أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم).

وكما في قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام ﴿قَالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى في المنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فانظرْ ماذَا تَرى﴾[2].

٢ ـ ويكون بإلهام النبي في حالة اليقظة وإلقاء المعنى في قلبه من غير أن يرى الملك، كما قال ﷺ: «إنَّ روح القدس نفث في روعي انَّه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب»[3].

---

(١) «صحيح البخاري» ٣/١ و«صحيح مسلم» ٩٧/١ و«الترمذي» ٣٠١/٤ و«سنن النسائي» و«المسند» ١٥٣/٦ و٢٣٢ وانظر شرح الحديث في «فتح الباري» ٢٢/١ وانظر «اللؤلؤ والمرجان» ٣٢/١ و«الإتقان» ٢٣/١ النوع السابع.

(٢) سورة الصافات: ١٠٢. وفي «صحيح البخاري» ٣٣/١: [قال عمرو: سمعت عبيد بن عمير يقول: رؤيا الأنبياء وحيٌ. ثم قرأ: ﴿إني أرى في المنام أني أذبحك﴾].

(٣) «المستدرك» للحاكم ٤/٢ و«الفقيه والمتفقه» للخطيب ٩٢/١-٩٣ و«مناقب الشافعي» للبيهقي ٣٢٤/١ و«سنن ابن ماجه» ٣/٢ و«الحلية» لأبي نعيم ١٥٦/٣ و١٥٨/٧ و٢٧/١٠ و«ابن حبان» رقم ١٠٨٤ و«الرسالة» للشافعي ص٩٣ و«الترغيب والترهيب» للمنذري ٢٣١/٢ و«مجمع الزوائد» ٧٢/٤ و«فيض القدير» ٤٥٠/٢ و«الإتقان» ٤٤/١ وقال ابن حجر: أخرجه ابن أبي الدنيا في «القناعة» وصححه الحاكم من طريق ابن مسعود. وانظر «فتح الباري» ٢٠/١ وذكره العجلوني في «كشف الخفاء» ٢٣١/١ وقال: رواه في «مسند الفردوس» عن جابر... وأبو نعيم والطبراني عن =

٣ ـ ويكون بتكليم النبي من وراء حجاب وبشكل مباشر ويسمع النبي الكلام، كما كلم الله سبحانه موسى عليه السلام من وراء الشجرة كما نص على ذلك القرآن: ﴿فلمَّا أَتَاها نُودي من شاطِىء الوادِ الأيمنِ في البقعةِ المباركةِ من الشجرةِ: أنْ يا موسى إني أنَا اللهُ ربُّ العالمينَ﴾ (١).

٤ ـ ويكون بتكليم النبي بواسطة جبريل، وهذه الصورة لها شكلان: الشكل الأول: ان يأتيه الملك في مثل صلصلة الجرس (٢) وكان أشده عليه، حتى إن جبينه ليعرق (٣) وحتى تبرك راحلته (٤). وقد جاء الوحي مرة كذلك وفخذه ﷺ على فخذ زيد بن ثابت فثقلت على فخذ زيد حتى كادت ترضها (٥).

الشكل الثاني: أن يأتيه جبريل ويتمثل له رجلاً، فيخاطبه. كما قال ﷺ: «أحياناً يتمثَّل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول» (٦).

وزاد أبو عوانة في «صحيحه»: «وهو أهونه علي» (٧).

وكما في حديث جبريل عندما جاء ليعلم المسلمين أمور دينهم، وذلك عن

= أبي أمامة، والبزار عن حذيفة، وأخرجه ابن أبي الدنيا، وصححه الحاكم عن ابن مسعود. وصححه الألباني في تخريجه لكتاب «فقه السيرة» للغزالي ص٩٦ وانظر «عمدة القارى» ١٤/١.

(١) سورة القصص: ٣٠.

(٢) قال الخطابي: والمراد أنه صوت متدارك يسمعه ولا يتثبته أول ما يسمعه حتى يفهمه بعد (انظر «الإتقان» ٤٤/١).

(٣) انظر الحديث في «صحيح البخاري» ٣/١ و«صحيح مسلم» ٨٢/٧ و«الترمذي» ٣٠١/٤ و«النسائي» ١١٣/٢ و١١٤ و«الموطأ» ٢٠٢/١ و«مسند أحمد» ١٥٨/٦ و١٦٣ و٢٥٧.

(٤) انظر «مسند أحمد» ١١٨/٦ و٤٥٥ و«المستدرك» ٥٠٥/٢ ووافقه الذهبي.

(٥) انظر «صحيح البخاري» ٤٠/٦ و«سنن أبي داود» ١٧/٣.

(٦) انظر «صحيح البخاري» ٣/١ و«صحيح مسلم» ٨٢/٧ و«الترمذي» ٣٠١/٤.

(٧) «الإتقان» ٤٤/١.

طريق سؤال النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة[1].

وقد يرى الملك في صورته التي خلقه الله عليها، فيوحي اليه ما شاء الله ان يوحيه. وهذا وقع مرتين كما ذكر الله سبحانه في سورة النجم وفي سورة التكوير[2]. ففي صحيح مسلم[3] عن مسروق قال:

كنت متكئاً عند عائشة، فقالت: يا أبا عائشة (وهي كنية مسروق)[4] ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية.

قلت: ما هن؟.

قالت: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية.

قال: وكنت متكئاً فجلست، فقلت: يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجليني، ألم يقل الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَآه بالأُفُقِ المُبينِ﴾[5] ﴿ولقدْ رآهُ نَزْلَةً أُخْرى﴾[6].

فقالت: أنا أول هذه الأمة من سأل ذلك رسول الله ﷺ فقال: «انما هو جبريل لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته منهبطاً من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء والارض».

وقالت: أولم تسمع أن الله عز وجل يقول: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأبصارُ وَهُوَ

---

(١) انظر الحديث في «صحيح مسلم» ١/٢٩ و«رياض الصالحين» باب المراقبة.

(٢) قال ابن القيم في «الزاد» ٢/٤٨: [وهذا هو جبريل رآه محمد ﷺ مرتين: مرّة في الأرض، ومرّة عند سدرة المنتهى] وانظر «تفسير ابن كثير» ٣/٢٣ و ٤/٢٥١ - ٢٥٢ عند تفسير سورة النجم.

(٣) «صحيح مسلم» ١/١١٠ وبرقم ١٧٧ في ط عبد الباقي وانظر «صحيح البخاري» ٦/١١٧ و«الفتح» ٨/٦٠٦ وانظر «الاجابة» للزركشي ط ١ ص ٩٦ وط ٢ ص ٨٥.

(٤) هو مسروق بن الأجدع الهمداني الكوفي. تابعي ثقة فقيه عابد. روى عن عدد من الصحابة. توفي سنة ٦٣ هـ.

(٥) سورة التكوير: ٢٣.

(٦) سورة النجم: ١٣.

يُدْرِكُ الأبصارَ وَهُوَ اللطيفُ الخبيرُ﴾[1] أولم تسمع أن الله عز وجل يقول: ﴿وما كانَ لبشرٍ أن يُكَلِّمَهُ اللهُ إلا وحياً أو مِنْ وراءِ حجابٍ أوْ يُرْسلَ رَسُولاً﴾[2].

قالت: ومن زعم أنَّ رسول الله ﷺ كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية، والله تعالى يقول: ﴿يا أيُّها الرسولُ بلِّغْ ما أُنْزِلَ إليكَ مِنْ رَبِّكَ وإنْ لَمْ تفعلْ فما بَلَّغْتَ رِسالتَهُ﴾[3].

قالت: ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية والله تعالى يقول: ﴿قلْ لا يعلمُ مَنْ في السمواتِ والأرضِ الغيبَ إلا اللهُ﴾[4].

وهذه الصورة الرابعة وأعني الشكل الأول هي التي نزل بواسطتها القرآن.

آثار الوحي على الرسول:

صور لنا الصحابة فيما أوردوا من وصف الرسول ﷺ آثار هذه الظاهرة: ظاهرة الوحي، فذكروا ان الرسول ﷺ كانت تبدو على وجهه الكريم أمارات معينة في كل مرة ينزل عليه القرآن.

وكان أمر هذه الظاهرة لا يخفى على احد ممن ينظرون اليه، فكانوا ـ كما تروي الأحاديث الصحيحة ذلك ـ يرونه قد احمرَّ وجهه فجأة، وأخذته البُرَحاء[5] حتى يتفصَّد جبينُه عرقاً في اليوم البارد، وثقل جسمه

---

(١) سورة الانعام: ١٠٣.

(٢) سورة الشورى: ٥١.

(٣) سورة المائدة: ٦٧.

(٤) سورة النمل: ٦٥.

(٥) برحاء الحمى: شدة أذاها.

حتى كاد يرض فخذه فخذ الجالس الى جانبه[1]، وحتى لو كان راكباً لبركت راحلته كما سبق أن مر بنا.

وكانوا مع ذلك يسمعون عند وجهه ﷺ أصواتاً مختلطة تشبه دوي النحل[2].. ثم لا يلبث أن تسرى عنه تلك الشدة فاذا هو يتلو قرآناً جديداً وذكراً للعالمين[3].

وقد ذكر الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله أن هذه الاوصاف كلها ثابتة في الأحاديث الصحيحة عند الشيخين وأبي داود والترمذي[3].

* * *

صدق ظاهرة الوحي:

ان هذه الظاهرة العجيبة لا يمكن ان تكون متكلفة ولا مصنوعة لاسيما إذا تأملنا تلك الأصوات المختلطة التي كانت تسمع عند الوجه النبوي الشريف.

ولو كانت صناعة وتكلفاً لكانت طوع يمينه، فكان لا يشاء يوماً أن يأتي بقرآن جديد إلا جاء به من هذا الطريق الذي اعتاد في تحضيره[4].

وإليك بعض الأدلة على أن الوحي أمر لا يعود إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم:

---

(١) وهذا حديث زيد بن ثابت أورده البخاريّ معلقاً في أول كتاب الصلاة في باب الصلاة بغير رداء وأورده موصولاً في «صحيحه» ٤٠/٦ في تفسير سورة النساء في نزول قوله تعالى ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين﴾ وانظر «فتح الباري» ٤٧٩/١ و«أبو داود» ١٧/٣ و«الترمذي» ٩٢/٤ و«النسائي» ٩/٦ وانظر «معالم السنن» للخطابي ٣٦٨/٣.

(٢) أخرجه أحمد ٣٤/١ والترمذي ١٥١/٤والحاكم ٥٣٥/١ و ٣٩٢/٢ وانظر «شرح السنة» للبغوي ١٧٧/٥.

(٣) انظر «النبأ العظيم» ص ٧١.

(٤) «النبأ العظيم» ص ٧٢.

١ ـ كانت تنزل بالنبي نوازل يتطلب لها حلاً، وكذلك كل من حوله، ولكنه لا يجد في شأنها قرآناً يقرؤه على الناس[١].

ومن هذه النوازل والأزمات حديث الإفك عن زوجه السيدة المصونة عائشة رضي الله عنها، فلقد أبطأ الوحي، وطال الانتظار، والناس يخوضون في هذا الحديث المؤذي، ويلوكون عرض النبي النقي، حتى بلغت القلوب الحناجر. وهو لا يستطيع أن ينهي هذه المشكلة، ويحسم هذا الموضوع، ومضى شهر بأكمله وهو ينتظر رأي السماء، وما زاد على أن قال لها آخر الأمر:

«يا عائشة أما إنه بلغني كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وان كنت ألممت بذنب فاستغفري الله»[٢].

هذا كلام رجل من البشر لا يعلم الغيب. وكلام المتثبت الذي لا يتبع الظن ولا يقول ما ليس له به علم. على أنه لم يغادر مكانه بعد أن قال هذه الكلمات حتى نزل صدر سورة النور معلناً براءتها ومصدراً الحكم المبرم بشرفها وطهارتها.

فماذا كان يمنعه ـ لو أن أمر القرآن اليه ـ أن يتقول هذه الكلمة الحاسمة من قبل ليحمي بها عرضه، ويذب بها عن عرينه، ويقطع بها ألسنة القاذفين المتخرصين وينسبها إلى الوحي؟

ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله[٣].

٢ ـ وفي مرات أخرى كان يجيئه القول فيها على غير ما يحبه ويهواه ويخطئه في الرأي يراه، ويأذن له في الشيء لا يميل إليه، فمن ذلك قوله

---

(١) «النبأ العظيم» ص ١٦.

(٢) انظر حديث الإفك في «البخاري» ٩٦/٥ و ٨٨/٦ و«مسلم» ١١٢/٨ و«الترمذي» ١٥٥/٤ ـ ١٥٧ و«تفسير ابن كثير» ٢٦٨/٣ وكتب السيرة.

(٣) «النبأ العظيم»: ص ١٧.

تعالى: ﴿وتُخْفي في نفسِكَ ما اللهُ مُبْدِيهِ وتَخْشَى الناسَ واللهُ أحقُّ أنْ تَخْشَاهُ﴾ [1] وقوله تعالى: ﴿عَفَا اللهُ عَنْك لِمَ أذنتَ لَهُمْ حَتَّى يتبيَّنَ لكَ الذين صَدَقُوا وتَعْلَمَ الكاذبينَ﴾ [2] وقوله تعالى: ﴿أمَّا مَن استغنَى فأنتَ له تَصدَّى. وما عليك ألاَّ يَزَّكى. وأما من جَاءَكَ يَسْعى. وَهُوَ يَخْشَى. فأنتَ عَنْهُ تَلَهَّى. كَلاَّ﴾ [3].

لو كانت هذه التقريعات المؤلمة صادرة عن وجدانه، معبرة عن ندمه حين بدا له خلاف ما فرط من رأيه: أكان يعلنها عن نفسه بهذا التهويل؟ ألم يكن له في السكوت عنها ستر على نفسه واستبقاء لحرمة آرائه [4]؟؟.

٣ ـ ولقد كان يجيئه الأمر أحياناً بالقول المجمل، أو الأمر المشكل الذي لا يستبين هو ولا أصحابه تأويله حتى ينزل الله عليهم بيانه بعد.

فهل هناك انسان توحي اليه نفسه كلاماً لا يفهم هو معناه؟ وتأمر أمراً لا يعقل هو حكمته؟

أليس ذلك من الأدلة الواضحة على أنه ناقل لا قائل، وأنه مأمور لا آمر؟ [5].

نزل قوله تعالى: ﴿وإنْ تُبْدُوا ما في أنفُسِكُم أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكم بهِ اللهُ﴾ [6] فأزعجت الصحابة إزعاجاً شديداً، وداخل قلوبهم منها شيء لم

---

(١) سورة الاحزاب: ٣٧. روى ابن جرير عن عائشة انها قالت: لو كتم محمد ﷺ شيئاً مما أوحي اليه من كتاب الله تعالى لكتم ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه﴾ انظر «تفسير الطبري» ١٣/٢٢ وابن كثير ٤٩١/٣.

(٢) سورة التوبة: ٤٣.

(٣) سورة عبس: ٥ ـ ١٠.

(٤) انظر «النبأ العظيم» ص ١٨.

(٥) انظر «النبأ العظيم» ص ٢١.

(٦) سورة البقرة: ٢٨٤.

يداخلها من شيء آخر، لأنهم فهموا منها أنهم سيحاسبون على كل شيء حتى حركات القلوب وخطراتها، فقالوا:

- يا رسول الله أنزلت علينا هذه الآية ولا نطيقها.

- فقال لهم النبي ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير» فجعلوا يتضرعون بهذه الدعوات حتى أنزل الله بيانها بقوله: ﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاّ وُسْعَها لَها ما كَسَبَتْ وعليها ما اكتسبتْ..﴾ (١).

فلو كان النبي ﷺ يعلم تأويلها من أول الامر لبيّن لهم خطأهم ولأزال اشتباههم من فوره، لأنه لم يكن ليكتم عنهم هذا العلم وهم في أشد الحاجة اليه (٢).

الخلاصة:

وخلاصة ما يمكن أن نذكره في ظاهرة الوحي ما يأتي:

١ - انها حالة غير اختيارية.

٢ - وهي عارض غير عادي.

٣ - وهي قوة خارجية: لأنها لا تتصل بنفس النبي ﷺ إلا حيناً بعد حين.

٤ - وهي قوة عالمة: لأنها توحي إليه علماً.

٥ - وهي قوة أعلى من قوة النبي ﷺ: لأنها تحدث في نفسه وفي بدنه تلك الآثار العظيمة.

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٦. وانظر «صحيح مسلم» ١/٨٠ - ٨١ باب بيان قوله تعالى ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه﴾ و«المسند» ٢/٤١٢ و«المستدرك» ٢/٢٨٦ و«تفسير الطبري» ٦/١٠٤ - ١٢٣ ط محمود شاكر.

(٢) «النبأ العظيم» ص ٢٢.

٦ ـ وهي قوة خيرة معصومة: لأنها لا توحي إلا بالحق ولا تأمر إلا بالرشد [١].

* * *

(١) «النبأ العظيم» ص ٧٢ ـ ٧٤ وينبغي ان يقف القارىء على كلام سيد قطب رحمه الله عن الوحي في «ظلال القرآن» ٥٣/٢٥ ـ ٥٧ من المجلد السابع.

الفصل الرابع

في تنجيم القرآن

معنى التنجيم:

التنجيم في اللغة: التفريق. يقال: نجم المال تنجيماً: إذا أدّاه نجوماً.

وتنجيم القرآن أي نزوله مفرقاً على دفعات.

مدة التنجيم:

نزل القرآن منجماً في مدة ثلاث وعشرين سنة.

وقدرها الاستاذ الخضري باثنتين وعشرين سنة وشهرين واثنين وعشرين يوماً معتبراً بدايته في ١٧ رمضان ونهايته في ٩ ذي الحجة للسنة العاشرة للهجرة[١].

وقد ردّ عليه الأستاذ الزرقاني رداً رفيقاً في «مناهل العرفان» فقال: (لكن هذا التحقيق لا يزال في حاجة إلى تحقيقات ثلاثة لأنه..)[٢].

كمية النازل في كل نجم:

وكانت كمية الآيات تتفاوت في النزول، فأحياناً كانت تنزل آية من

---

(١) تاريخ التشريع الاسلامي ص ٥.

(٢) انظر تفصيل ذلك في «مناهل العرفان» ١/٤٥.

القرآن على النبي ﷺ، وأحياناً ينزل بعض آية كما في قوله تعالى: ﴿غَيْرُ أُولي الضرر﴾ [1] حيث نزلت وحدها في قوله تعالى: ﴿لا يَستوي القاعدونَ مِنَ المؤمنينَ غيرُ أُولي الضررِ والمجاهدونَ في سبيلِ اللهِ بأموالِهم وأنفسِهم﴾ [2].

وكما في قوله تعالى: ﴿وإنْ خِفْتُم عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنيكُم اللهُ من فضلِهِ إنْ شاءَ إنَّ اللهَ عليمٌ حكيمٌ﴾ [3] بعد قوله تعالى: ﴿إنَّما المشركونَ نجسٌ فلا يَقرَبُوا المسجدَ الحرامَ بعدَ عامِهم هَذا﴾ [3].

وأحياناً كانت تنزل عليه الآيتان والخمس والعشر فقد نزل في موضوع الإفك عشر آيات جملة واحدة من أول سورة النور [4].

وقد ذكر السيوطي في «الاتقان» أن من السور التي نزلت جملة واحدة (الفاتحة) و (الكوثر) و (تبت) و (لم يكن) و (النصر) و (المعوذتان) و (المرسلات) [5] و...

* * *

موقف المشركين من التنجيم:

كان تنجيم القرآن مثار الاعتراض من المشركين. وقد ذكر ذلك القرآن الكريم وأجاب عنه.

قال تعالى: ﴿وقالَ الذينَ كَفَرُوا: لَوْلا نُزِّلَ عليهِ القرآنُ جُمْلَةً واحدةً.

---

(١) انظر تفصيل ذلك في «مناهل العرفان» ١/٤٥.

(٢) سورة النساء: ٩٥ وانظر الحديث في «صحيح البخاري» ٦/٤٠ و«سنن أبي داود» ٣/١٧ و«الترمذي» ٤/٩١ - ٩٢.

(٣) سورة التوبة: ٢٨.

(٤) من الآية ١١ حتى الآية ٢١.

(٥) «الاتقان» ١/٣٧.

كذلكَ لنثبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ ورتَّلْنَاهُ تَرْتيلاً﴾ [1].

ومن المفيد ان ننقل تعليق أبي شامة [2] على الآية كما أورده السيوطي في «الاتقان» قال أبو شامة:

(فإن قيل: ما السر في نزوله منجماً؟ وهلا أنزل كسائر الكتب جملة؟ قلنا: هذا سؤال قد تولى الله جوابه فقال تعالى: ﴿وَقَالَ الذينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عليه القرآنُ جُمْلةً واحدةً﴾ [1] يعنون: كما أنزل على من قبله من الرسل فأجابهم الله تعالى بقوله ﴿كذلك﴾ أي أنزلناه كذلك مفرقاً ﴿لنثبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ﴾ أي لنقوي به قلبك، فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى للقلب وأشد عناية بالمرسل إليه ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك، وتجدد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة، ولهذا كان أجود ما يكون في رمضان لكثرة لقياه جبريل) [3].

حكم التنجيم وأسراره:

ونستطيع ان نذكر من حكم التنجيم وأسراره ما يأتي:

١ ـ تثبيت فؤاد النبي ﷺ: لأن في تجدد الوحي قوة لقلبه ﷺ واستشعاراً لعناية الله برسوله، هذا فضلاً عن مضمون الآيات المشجعة للرسول ﷺ المعزية له كما في قوله تعالى: ﴿واصْبِرْ على ما يَقُولُونَ

---

(١) سورة الفرقان: ٣٢.

(٢) هو عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي الدمشقي أبو القاسم شهاب الدين، مؤرخ محدث باحث ولد في دمشق سنة ٥٩٩ وفيها نشأ وولي مشيخة دار الحديث الاشرفية. دخل عليه اثنان في صورة مستفتيين فضرباه فمات في دمشق سنة ٦٦٥. لقب أبا شامة لشامة كبيرة كانت فوق حاجبه الأيسر. وانظر كلام أبي شامة في كتابه «المرشد الوجيز» ص ٢٨. وقد طبع في بيروت ١٣٩٥ (١٩٧٥) بتحقيق طيار آلتي قولاج.

(٣) الاتقان ١/٤١.

واهجُرْهُمْ هَجْراً جَميلاً﴾[1] وقوله: ﴿فلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُم إنَّا نعلمُ ما يُسِرُّونَ وما يُعْلِنُونَ﴾[2] وقوله: ﴿فَلعلَّكَ بَاخعٌ نَفْسَكَ على آثارِهِم إنْ لَمْ يُؤمِنُوا بهذا الحديثِ أسَفاً﴾[3] وقوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إنَّهُ لَيُحْزنُكَ الذي يقولونَ فإنَّهُمْ لا يُكذِّبُونَكَ ولكنَّ الظالمينَ بآياتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾[4] وقولـه: ﴿فلا تذهبْ نَفْسُكَ عليهم حَسَرَاتٍ﴾[5].

٢ ـ تسهيل حفظه على الرسول والمسلمين وتسهيل فهمه:

فإنه عليه الصلاة والسلام أمي لا يقرأ ولا يكتب، وكذلك كان العرب المسلمون، وقد سماهم الله أميين ﴿هُوَ الذي بَعَثَ في الأميِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾[6].

ولئن كان النبي ﷺ قد وعد بأنه سيعان على الحفظ بحيث لا ينسى كما قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى﴾[7] إن المسلمين بحاجة إلى زمن يساعدهم على الحفظ، ومن أجل ذلك كان نزوله منجماً.

٣ ـ موالاة تقريع الكفار بالحجة بعد الحجة، وتجديد تذكيرهم بانحرافهم وسوء عقيدتهم: لو نزل القرآن دفعة واحدة لواجه الكفار هذه التقريعات، وتألموا لها أول مرة، ثم ألفوها، ونسيها الناس.

٤ ـ استغلال الحوادث والوقائع للرد على المشركين وفضح المنافقين:

وهذه حكمة عظيمة من حكم التنجيم، فقد كانت الآيات القرآنية

---

(١) سورة المزمل: ١٠.
(٢) سورة يس: ٧٦.
(٣) سورة الكهف: ٦.
(٤) سورة الانعام: ٣٣.
(٥) سورة فاطر: ٨.
(٦) سورة الجمعة: ٢.
(٧) سورة الاعلى: ٦.

النازلة في حادثة معينة ترد على المشركين وتفحمهم، وتفضح المنافقين وتكتشف خفاياهم، وهذا يجعلهم يتخوفون أبداً ان يُكشفوا كما قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ المنافقونَ أنْ تُنَزَّلَ عليهم سورةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا في قُلُوبِهِمْ. قُلِ استهزئُوا إنَّ اللهَ مخرجٌ ما تَحْذَرُونَ﴾ (١).

٥ ـ تعميق التأثير في النفس والتذكر:

ان ربط الآية بالحادثة والواقعة أدعى الى ان يتذكر الناس جميعا هذه الآية، وأعمق تأثيراً في النفس البشرية.

لأن الآية عندئذ تعالج جانباً من حياة الناس عاشوه، ومثل ذلك من البعيد ان ينسى.

ومن الامثلة على ذلك ربط آية القذف بحادثة الإفك. والأمثلة على ذلك كثيرة.

٦ ـ رعاية المجتمع الاسلامي والأخذ بيده في الحياة الجديدة على ضوء هداية الله: ذلك لأن كثيراً من الآيات التشريعية كانت تنزل في الغالب جواباً عن سؤال كما في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشهرِ الحرامِ قتالٍ فيه قُلْ قتالٌ فيه كبيرٌ﴾ (٢) أو حلاً لاشكال ليس في الكتاب الكريم رأي فيه. كما في قصة مرثد الغنوي الذي عَرَضَتْ عليه امرأة مشركة الزواج، فقبل ووقف ذاك على إذن الرسول ﷺ له، فلما عرض قضيته على النبي ﷺ نزل (٣) قوله سبحانه: ﴿وَلاَ تَنْكِحُوا المُشْرِكَاتِ حتَّى يُؤمِنَّ﴾ (٤).

---

(١) سورة التوبة: ٦٤.

(٢) سورة البقرة: ٢١٧.

(٣) هذا قول ابن عباس ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» ٢٤٥/١ وقد رَوَى هذه القصة بسياقٍ آخرَ الترمذيُّ (١٥٣/٤ من تحفة الاحوذي) وذكر انها سبب لنزول الآية التي في أولِ سورة النور وهي قوله تعالى: ﴿الزاني لا ينكح الا زانية او مشركة﴾ وكذا رواه ابو داود ٢٩٨/٢ والنسائي ٥٤/٦ ـ ٥٥ واطبري ٥٦/١٨ وابن كثير ٢٦٢/٣.

(٤) سورة البقرة: ٢٢١.

وقد جلا هذه الناحية على خير وجه الأستاذ سيد قطب فقال:

(لقد جاء هذا القرآن ليربي أمة وينشىء مجتمعاً، ويقيم نظاماً، والتربية تحتاج إلى زمن، وإلى تأثير وانفعال بالكلمة، والى حركة تترجم التأثر والانفعال إلى واقع. والنفس البشرية لا تتحول تحولاً كاملاً شاملاً بين يوم وليلة بقراءة كتاب كامل شامل للمنهج الجديد. إنما تتأثر يوماً بعد يوم بطرف من هذا المنهج وتتدرج في مراقيه رويداً رويداً. وتعتاد على حمل تكاليفه شيئاً فشيئاً. فلا تجفل كما تجفل لو قدِّم لها ضخماً ثقيلاً عسيراً، وهي تنمو في كل يوم بالوجبة المغذية فتصبح بالتالي أكثر استعداداً للانتفاع بالوجبة التالية، وأشد قابلية لها والتذاذاً بها.

ولقد جاء القرآن بمنهاج كامل شامل للحياة كلها، وجاء في الوقت ذاته بمنهاج للتربية يوافق الفطرة البشرية عن علم بها من خالقها، فجاء لذلك منجماً وفق الحاجات الحية للجماعة المسلمة، وهي في طريق نشأتها ونموها ووفق استعدادها الذي ينمو يوماً بعد يوم في ظل المنهج التربوي الالهي الدقيق، جاء ليكون منهج تربية ومنهاج حياة، لا ليكون كتاب ثقافة يقرأ لمجرد اللذة أو لمجرد المعرفة.. جاء لينفذ حرفاً حرفاً، وكلمة كلمة وتكليفاً تكليفاً، جاء لتكون آياته هي (الأوامر اليومية) التي يتلقاها المسلمون في حينها ليعملوا بها فور تلقيها، كما يتلقى الجندي في ثكنته او في الميدان (الأمر اليومي) مع التأثر والفهم والرغبة في التنفيذ، ومع الانطباع والتكيف وفق ما يتلقاه... من أجل هذا كله نزل القرآن مفصلاً)[1].

لقد كان الناس في جزيرة العرب قبل الاسلام في شرك وجهالة، وبعد عن ذاك المستوى الرفيع الذي جاء في القرآن من توحيد الله وعبادته وحده، وإرادة الخير للناس، وتحريرهم من الظلم، وكان العالم كله في حالة

---

(١) «في ظلال القرآن» ١٩/٣٤.

انحلال وجور وجهل، وكان أهل الكتاب قد حرّفوا كتبهم، وأحلوا الخرافات والباطل مكان الحق.. فكان طبيعياً جداً ان يكون الكتاب الأخير آخذاً بمنهج التدرج في التشريع لإصلاح ذلك الواقع قال تعالى: ﴿وقُرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً﴾ (١).

والتدرج في التشريع وسيلة رعاية المجتمع الاسلامي، والأخذ بيده كما رأينا، ومن أبرز الامثلة على التدرج في التشريع الآيات التي ذكر فيها الخمر.

فلقد حرمت الخمر بعد ان امتلأت نفوس المسلمين مخافة من الله ورغبة في ثوابه، وحباً في التزام هديه.

وكان تحريم الخمر على مراحل كما هو معروف:

- نزل أولاً قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ والمَيْسِرِ قُلْ: فِيهِمَا إِثْمٌ كبيرٌ ومنافعُ للناسِ، وإثمُهما أكبرُ مِنْ نفعِهما﴾ (٢).

فلم تصرح الآية بطلب الكف عنها، ولكنها اكتفت بذكر ان اثمها اكبر من نفعها، وفي ذلك تهيئة النفس لقبول ما سينزل من الآيات بحقها.

- ثم نزل قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الذينَ آمنُوا لا تَقْرَبُوا الصلاةَ وأنتُمْ سُكَارى حتَّى تَعْلَمُوا ما تَقُولونَ﴾ (٣).

وفي هذه الآية نجد المنع مؤقتاً بحالة السكر. ومعلوم ان المسلم مكلف بالصلاة في أوقات متقاربة، لا يذهب خلالها أثر السكر، فكان ذلك سبباً في تركها سحابة النهار، وكانوا اذا صلوا العشاء سكر من أراد منهم السكر. وفي ذلك تدريب على تركها مدة طويلة من يقظة الانسان.

---

(١) سورة الاسراء: ١٠٦.

(٢) سورة البقرة: ٢١٩ وانظر «تفسير القرطبي» ٣/٥٢.

(٣) سورة النساء: ٤٣.

ـ ثم نزل قوله تعالى: ﴿يَا أيُّها الذينَ آمنُوا إنَّمَا الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رِجْسٌ من عَمَلِ الشيطانِ فاجتنبوهُ لعلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. إنَّما يُريدُ الشيطانُ أنْ يُوقِعَ بينكُم العَداوَة والبغضاءَ في الخمرِ والميسرِ ويَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وعنِ الصلاة. فهل أنتُم مُنْتَهُونَ﴾ (١).

فانتهى المسلمون، وتركوا الخمر، وأهرقوا ما في دورهم منها.

روى البخاري عن عائشة قالت:

(إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى اذا ثاب الناس الى الاسلام نزل الحلال والحرام. ولونزل أول شيء (لا تشربوا الخمر) لقالوا: لا ندع الخمر أبداً. ولونزل (لا تزنوا) لقالوا: (لا ندع الزنا أبداً) (٢).

وكذلك فإنَّ التدرج كان في عقوبة الزنا أيضاً، اذ كان الحبس في البيوت حتى الموت للزانيات أو يجعل الله لهن سبيلاً، ثم نزل الحد. جاء في تفسير الجلالين في تفسير قوله تعالى: ﴿واللاتي يَأتِينَ الفَاحِشَةَ من نِسَائِكُمْ فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتَوفّاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً﴾ (٣): [أمروا بذلك أول الإسلام، ثم جعل لهن سبيلاً بجلد البكر مائة وتغريبها عاماً ورجم المحصنة] وروى مسلم انه ﷺ قال: «خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم» (٤).

---

(١) سورة المائدة: ٩٠ ـ ٩١.

(٢) «صحيح البخاري» ١٥٢/٦ وانظر «الاتقان» ٤٢/١ أقول: بهذا التدرج والاعتماد على العقيدة نجح الاسلام في تحريم الخمر والقضاء عليه كما تقول السيدة عائشة، بينما أخفقت حكومة أمريكا عندما أرادت منعه على الرغم من الأموال والجهود الكثيرة التي بذلتها واضطرت إلى اباحته مرة اخرى سنة ١٩٣٣ وانظر «ماذا خسر العالم» ص ٩١.

(٣) سورة النساء: ١٥.

(٤) «صحيح مسلم» ١٣١٦/٣ ط عبد الباقي.

٧ ـ اثبات الاعجاز :

في التنجيم دليل قاطع على الاعجاز ، وذلك من وجهين :

الأول: في كونه محافظاً على المستوى الرفيع في البيان ، والدرجة العالية في البلاغة ، ذلك لأننا لا نعرف في مجال الأدب والبيان فصيحاً استطاع ان يبقى محافظاً على مستوى سامٍ في نتاجه الادبي مدة طويلة . بل إننا لنجد ان للنابغين من أئمة البيان سقطات ، وكلما زاد احدهم تفوقاً عظمت سقطته ، فالمتنبي الذي ملأ الدنيا وشغل الناس والذي ترك دويًّا في دنيا الفكر والأدب كبيراً جداً نجد له عدداً من الهفوات التي أخذت عليه[١] وكذلك شأن أبي تمام[٢] وأبي نواس[٣] وهما ـ كما يقول الجرجاني ـ سبدا المطبوعين وإماما أهل الصنعة[٤] وكذلك شأن امرىء القيس وهو كبير شعراء الجاهلية فما اكثر الابيات التي عيبت عليه وأطال النقاد في ذكرها .

قال الباقلاني :

(ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ رأيت التفاوت في شعره على حسب الاحوال التي يتصرف فيها ، فيأتي بالغاية في البراعة في معنى ، فاذا جاء إلى غيره قصر عنه ووقف دونه ، وبان الاختلاف على شعره ، ولذلك ضرب المثل بالذين سميتهم[٥] ، لأنه لا خلاف في تقدمهم في صنعة الشعر ولا شك في تبريزهم في مذهب النظم ، فإذا كان الاختلال يتأتى في شعرهم لاختلاف ما يتصرفون فيه استغنينا عن ذكر من هو دونهم ، وكذلك

---

(١) انظر « الوساطة » للجرجاني ص ٦٤ ـ ٧٧ .

(٢) انظر « الوساطة » للجرجاني ص ٥١ ـ ٦٢ .

(٣) انظر « الوساطة » للجرجاني ص ٤٢ ـ ٥١ .

(٤) انظر « الوساطة » للجرجاني ص ٦٤ .

(٥) سمّى الباقلاني قبل هذا الكلام عدداً من الشعراء وهم: امرؤ القيس والنابغة وزهير فقال: [ولذلك ضرب المثل بامرىء القيس إذا ركب ، والنابغة إذا رهب ، وبـزهير اذا رغب] .

يستغنى به عن تفصيل نحو هذا في الخطب والرسائل ونحوها.... وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها على حد واحد في حسن النظم وبديع التأليف والرصف لا تفاوت فيه، ولا انحطاط عن المنزلة العليا، ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا)[1].

والقرآن ادب كلما أمعنت نظراً فيه أطلعك على نواح جديدة من الجمال، وكلما تقدم الزمان بدا من روعة اسلوبه وسحر بيانه ما لم يكن بادياً. هذا في القرآن على طول المدة التي نجم فيها.

وكذلك فإن مما يتصل بهذا المعنى بسبب هو ان التنجيم يبرز معنى الإعجاز في كون القرآن يعالج الموضوع الواحد اكثر من مرة، ويتكرر عرضه في ظروف متعددة متباعدة ويبقى الاسلوب في كل مرة رائعاً معجزاً.

قال الباقلاني:

(وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصة الواحدة تفاوتاً بيناً، ويختلف اختلافاً كبيراً، ونظرنا القرآن فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت، بل هو على نهاية البلاغة، وغاية البراعة، فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر لأن الذي يقدرون عليه قد بيّنا فيه التفاوت الكثير، عند التكرار وعند تباين الوجوه واختلاف الأسباب)[2].

الثاني: في كون الآيات نزلت في أوقات متباعدة، واستجابة لأسباب معينة، وعلى الرغم من ذلك فقد بدت السورة ذات موضوعات متماسكة، كل موضوع يمسك برقبة الذي بعده، ويسود السورة انسجام وائتلاف

---

(١) «إعجاز القرآن» ص ٣٧ طبع دار المعارف تحقيق السيد صقر.

(٢) «إعجاز القرآن» تحقيق الصقر طبع دار المعارف ص٣٧ ـ ٣٨.

وكأنها أنزلت مرة واحدة، وقد يكون أول السورة قد نزل بعد آخرها. وقد حلل هذه الناحية الدكتور محمد عبد الله دراز على أحسن وجه فقال: (اعمد إلى سورة من تلك السور التي تتناول اكثر من معنى واحد، وما أكثرها في القرآن، فهي جمهرته، وتنقل بفكرتك معها مرحلة مرحلة، ثم ارجع البصر كرتين: كيف بدأت؟ وكيف ختمت؟ وكيف تقابلت أوضاعها وتعادلت؟ وكيف تلاقت أركانها وتعانقت؟ وكيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها؟ ووطأت أولاها لأخراها؟ وأنا لك زعيم بأنك لن تجد البتة في نظام معانيها او مبانيها ما تعرف به أكانت هذه السورة قد نزلت في نجم واحد ام في نجوم شتى، ولسوف تحسب ان السبع الطول من سور القرآن قد نزلت كل واحدة منها دفعة، حتى يحدثك التاريخ أنها قد نزلت نجوماً)[1].

(١) «النبأ العظيم» ص ١٧٣ وانظر ما كتب الدكتور دراز حول هذا الموضوع ص ١٦١ - ١٨٠.

الفصل الخامس

في الآيـة والسـورة

١ ـ الآية:

١ ـ الآية في اللغة:

تدل كلمة الآية على معان عدة، نذكر أهمها فيما يأتي:

١ ـ المعجزة: ومنه قوله تعالى: ﴿سَلْ بني إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيةٍ بينةٍ﴾ (١).

٢ ـ العلامة الظاهرة: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ آيةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُم التابوتُ فيهِ سكينةٌ من ربِّكُمْ﴾ (٢). وقوله: ﴿ قالَ ربِّ اجعلْ لي آيةً قال آيَتُكَ ألاَّ تُكَلِّمَ الناسَ ثلاثةَ أيّامٍ إلاَّ رَمْزاً﴾ (٣).

ومنه قول العرب: بيني وبين فلان آية، اي علامة. ومنه قول النابغة:

تَـوهمـتُ آيـاتٍ لَهـا فعـرفْتُهَـا لستةِ أعوامٍ وذا العامُ سـابـعُ (٤)

٣ ـ الامر العجيب: ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابنَ مَريمَ وأُمَّهُ

---

(١) سورة البقرة: ٢١١.

(٢) سورة البقرة: ٢٤٨ والتابوت: الصندوق.

(٣) سورة آل عمران: ٤١.

(٤) ديوان النابغة ص ٧٢.

آيةً﴾[1]. قال الراغب: (وانما قال: وجعلنا ابن مريم وأمه آية ولم يقل: آيتين. لأنَّ كل واحدٍ صار آيةً بالآخر)[2].

٤ ـ العبرة: ومنه قوله تعالى: ﴿إنَّ في ذلكَ لآيةً﴾[3].

٥ ـ البرهان والدليل: ومنه قوله تعالى: ﴿ومِنْ آياتِهِ خَلْقُ السماواتِ والأرضِ واختلافُ ألسنتِكُمْ وألوانِكُمْ﴾[4].

٦ ـ الجماعة: ومنه قولهم: خرج القوم بآيتهم، او بآياتهم أي بجماعتهم. قال برج بن مسهر الطائي[5]:

خَرَجْنَا مِنَ النقبينِ لاحيَّ مِثْلُنا بآياتنا نُزْجِي اللقاحَ المطافلا

* * *

وزنها:

اختلف علماء العربية في أصل (آية) ووزنها.

ـ فقال سيبويه: (أيَيَة) على وزن (فَعَلَة) مثل (أكَمَة) و (شَجَرَة) فلما تحركت الياء وانفتح ما قبلها انقلبت ألفاً فصارت (آية).

ـ وقال الكسائي: أصلها (آيية) على وزن (فاعلة) مثل (آمنة) فقلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها، ثم حذفت لالتباسها بالجمع.

ـ وقيل: غير ذلك.

* * *

---

(١) سورة المؤمنون: ٥٠.

(٢) «مفردات الراغب» ص ٣٢.

(٣) سورة آل عمران: ٤٩.

(٤) سورة الروم: ٢٢.

(٥) شاعر جاهلي من المعمرين، كانت إقامته في ديارطي بنجد وذكر الزركلي في «الاعلام» انه توفي نحو ٣٠ قبل الهجرة.

اشتقاقها:

ذكر العلماء أقوالاً في اشتقاقها غير أن أقربها للصواب القول بأنها مشتقة من (التأيّي) الذي هو التثبت والاقامة على الشيء. يقال: تأيّ، أي ارفق.

* * *

جمعها:

آي، وآيات، وآياء.

* * *

الآية في القرآن:

هي طائفة من القرآن منقطعة عما قبلها وعما بعدها، لها مبدأ ومقطع، وهي مندرجة في سورة ومعرفتها توقيفية على القول الراجح.

* * *

كيف تعرف الآيات:

القول الراجح أن معرفة الآيات لا يكون إلا بخبر عن النبي ﷺ وهذا معنى قولنا (معرفة الآيات توقيفي). وقد سبق في تعريف الآية.

* * *

وهناك من يذهب إلى أن من الآيات ما معرفته سماعية توقيفية، ومنها ما معرفته اجتهادية، يقولون: ما ثبت أن النبي ﷺ وقف عليه دائماً تحققنا أنه نهاية آية، وما وصله دائماً تحققنا أنه ليس نهاية آية، وما وقف عليه مرة ووصله أخرى احتمل الوقف أن يكون تعريف الفاصلة او للاستراحة، وبالاجتهاد نستطيع تحديد نهاية الآية في مثل ذلك.

العلاقة بين المعنى اللغوي والقرآني:

ـ سميت الآية آية لأنها علامة لانقطاع الكلام الذي قبلها عن الذي بعدها وانفصاله. أي هي بائنة من أختها ومنفردة.

وقالوا: الآية من القرآن كأنها العلامة ينتقل منها الى غيرها كأعلام الطريق المنصوبة للهداية.

ـ وقيل: سميت آية لأنها جماعة حروف من القرآن وطائفة منه.

ـ وقيل: سميت آية لأنها عجب يعجز البشر عن الاتيان بمثلها [1].

٢ ـ السورة:

قال ابن فارس: السين والواو والراء أصلٌ واحد يدلُّ على علوٍّ وارتفاع [2].

في نطقها لغتان: أولاهما (السؤرة) مهموزة، والثانية: (السورة) بلا همز، وهي الأشهر.

ـ أما الاولى ـ أي التي تهمز ـ فمشتقة من (أسأر) أي أبقى منها بقية. و (السؤر) البقية التي تزيد عن شرب الشارب في الاناء.

وسميت السؤرة سؤرة لأنها قطعت من القرآن على حدة، فهي قطعة من القرآن.

ـ وأما الثانية ـ أي التي لا تهمز ـ فقد قالوا في اشتقاقها أقوالاً كثيرة [3].

فقد قيل: إن أصلها (سؤرة) ثم سهلت الهمزة، وتكون العلاقة بين معناها اللغوي والقرآني هي التي ذكرناها آنفاً.

---

(١) انظر «البرهان» ١/٢٦٦ و«الاتقان» ١/٦٨.

(٢) «معجم مقاييس اللغة» ٣/١١٥.

(٣) انظر «الاتقان» ١/٥٢ و«نكت الانتصار» ص ٥٧ و«البرهان» للزركشي ١/٢٦٣.

وقيل: هي من السورة التي تعني في كلام العرب المنزلة الرفيعة.

قال النابغة:

ألم تـر أن الله أعطـاك سـورة ترى كل ملك دونها يتذبـذب[1]

أي منزلة شريفة ارتفعت اليها عن منزلة الملوك. وقال الحطيئة:

لعمـري لنعـم المرء لا متهـاون عن السورة العليا ولا متخـاذل[2]

وقال:

وأبنـاؤه بيـض كـرامٌ نما بهم إلى السورة العليا أبٌ غير تـوأم[3]

وسميت السورة سورة لارتفاعها وشرفها.

وقيل: هي من السور، وسور المدينة حائطها المشتمل عليها.

فالسورة تضم آيات من القرآن تحيط بها إحاطة السور وتشتمل عليها.

وقيل: سميت بذلك لأن قارئها يشرف على ما لم يكن عنده كسور البناء.

وقيل: سميت بذلك لتمامها وكمالها، من قول العرب للناقـة التـامـة: سورة.

جمعها:

وجمع السورة سُوَر، وسُورات، وسُوَرات.

السورة خاصة بالقرآن:

قال العلماء في تعريف السورة: هي طائفة من آيات القرآن، مُسَمَّاةٌ باسم خاصّ، لها فاتحة وخاتمة، وأقلها ثلاث آيات.

ونقل السيوطي عن الجاحظ قوله:

---

(١) «ديوان النابغة» ص ٣١.

(٢) «ديوان الحطيئة» ص ٢٤.

(٣) «ديوان الحطيئة» ص ٨٩.

(سمى الله كتابه اسماً مخالفاً لما سمى العرب كلامهم على الجمل والتفصيل:

سمّى جملته قرآناً كما سموا ديواناً،

وبعضه سورة كقصيدة،

وبعضها آية كالبيت،

وآخرها فاصلة كقافية.)[1]

من سمى سور القرآن؟

ذهب السيوطي إلى أنها مسماة بتوقيف من النبي ﷺ وقال: (وقد ثبت جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار، ولولا خشية الاطالة لبينت ذلك)[2].

هذا، وقد يكون للسورة اسمان فأكثر، والغالب أن لها اسماً واحداً.

---

(١) «الاتقان» ١/٥٠ النوع السابع عشر.

(٢) «الاتقان» ١/٥٢.

الفصل السادس

في ترتيب آيات القرآن وسوره

١ ـ ترتيب آيات السورة:

أما ترتيب الآيات في السورة الواحدة فقد كان في عهد النبي ﷺ وباشارة منه، وهذا مدلول قول زيد بن ثابت الذي رواه الحاكم بسند على شرط الشيخين قال: «كنا عند رسول الله نؤلف القرآن من الرقاع»[١].

قال البيهقي: شبيه أن يكون المراد به تأليف ما نزل من الآيات المتفرقة في سورها وجمعها فيه باشارة النبي ﷺ، فقد جاء في حديث عثمان الذي أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان أنه قال: كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السورة ذات العدد فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا. وفي رواية عنه قال: كان النبي ﷺ مما تنزل عليه الآيات فيدعو بعض من كان يكتب له ويقول له: «ضع هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وتنزل عليه الآية والآيتان فيقول مثل ذلك»[٢].

---

(١) «المستدرك» ٢/٢٢٩ و ٦١١

(٢) «أبو داود» ١/٢٩٠ و «الترمذي» ٤/١١٣ ـ ١١٤ و«المسند» ١/٥٧ و«المستدرك» ٢/٢٢١ و ٣٣٠ و«السنن الكبرى» ٢/٤٢. وانظر «المرشد الوجيز» ص ٣٣.

ومن الأدلة على أن ترتيب الآيات توقيفي حديث حذيفة الذي رواه مسلم في «صحيحه» قال: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها [1]... وهناك إجماع على أنه توقيفي. لا خلاف فيه بين المسلمين.

قال الباقلاني:

(ترتيب الآيات أمر واجب وحكم لازم، فقد كان جبريل يقول: ضعوا آية كذا في موضع كذا) [2] وقال أيضاً:

(ان ترتيبه ونظمه ثابت على ما نظمه الله تعالى ورتبه عليه رسوله من آي السور، لم يقدم من ذلك مؤخر، ولا أخر منه مقدم، وإن الأمة ضبطت عن النبي ﷺ ترتيب آيات كل سورة ومواضعها وعرفت مواقعها كما ضبطت عنه نفس القراءة وذات التلاوة) [3].

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية في هذا الصدد:

(وأما ترتيب آيات السور فهو منزل منصوص عليه، فلم يكن لهم أن يقدموا آية على آية في الرسم كما قدموا سورة على سورة لأن ترتيب الآيات مأمور به نصاً وأما ترتيب السور فمفوض الى اجتهادهم) [4].

قال الاستاذ سيد قطب رحمه الله:

إنَّ وضع الآيات في السور وترتيبها في مواضعها كان يتم بأمر رسول

---

(١) «صحيح مسلم» ١٨٦/٢ ط استانبول و٥٣٦/١ ط عبد الباقي. وانظر «رياض الصالحين» باب المجاهدة ص ٦٧.

(٢) «الاتقان» ٦١/١ وانظر «عنوان البيان» لمخلوف ٧٢.

(٣) «الاتقان» ٦١/١ وانظر «المرشد الوجيز» ص ٤٥.

(٤) «مجموع الفتاوى» ٣٩٦/١٣.

الله ﷺ في حياته، وإن سوراً متعددة كانت تظل مفتوحة في الوقت الواحد فاذا نزلت آية أو آيات في مناسبة واقعة تواجه واقعاً قائماً أو تكمل حكما او تعدله وفق المنهج الحركي الواقعي لهذا الدين أمر رسول الله ﷺ أن توضع في موضعها من سورتها، وبذلك كانت هناك حكمة في أن تتضمن كل سورة ما تضمنته من الآيات، وحكمة معينة كذلك في ترتيبها في مواضعها من السورة.

ولقد لاحظنا ـ كما أثبتنا ذلك مراراً في التعريف بالسور ـ أن هناك « شخصية » خاصة لكل سورة، وسمات معينة تحدد ملامح هذه الشخصية، كما أن هناك جواً معيناً وظلالاً معينة ثم تعبيرات بعينها في السورة الواحدة تؤكد هذه الملامح وتبرز تلك الشخصية)[1].

لماذا لم ترتب الآيات حسب نزولها؟

شاءت ارادة الله أن يوحي الى الرسول ﷺ بموضع الآية من السورة كما رأينا، وأن يجمع على غير ترتيب نزوله ليظل معجزة الى أبد الآبدين. وفي ذلك يقول الأستاذ محمد المدني في كتابه « المجتمع الاسلامي كما تصوره سورة النساء »:

(لو أنه جمع على حسب ترتيب نزوله لفهم بعض الناس أن آياته خاصة بحوادثها، أو أنه حلول وقتية للمشكلات التي كانت على عهد الرسول فحسب، والله تعالى يريد كتابه عاماً خالداً لا يختص بعصر دون عصر، ولا بقوم دون قوم. لذلك اقتضت الحكمة بأن يرتب ترتيباً يحقق هذا العموم وهذا الخلود، ويبتعد عن الترتيب الزمني الذي نزل به لحكمة كانت مناسبة حين نزوله)[2].

---

(١) « في ظلال القرآن » ١٠/١١١.

(٢) نقلا عن كتاب « القرآن والعلم الحديث » لعبد الرزاق نوفل ص ١٤.

٢ ـ ترتيب سور القرآن:

أما ترتيب السور فأمر مختلف فيه. فبعضهم يقول: إنَّه توقيفي [١]. وبعضهم يرى أنه اجتهاد من الصحابة. ويستدلُّ كل فريق بأدلة. فأما الذين يذهبون إلى انه باجتهاد من الصحابة، فقد قالوا: مما يدل على ذلك اختلاف مصاحف السلف من الصحابة كعلي وابن مسعود وأُبي بن كعب وغيرهم في هذه المصاحف من ناحية ترتيب السور. وقد أشار الى هذا الخلاف القرطبي في «التفسير» [٢] والسيوطي في «الاتقان» [٣]. قال الباقلاني:

(يمكن ان يكون الرسول ﷺ قد رتب سوره، وان يكون قد وَكَل ذلك إلى الأمة بعده. ولم يتولَّ ذلك بنفسه، وهذا الثاني أقرب) [٤].

وذكر أبو بكر الطرطوشي أنه قيل لمالك: كيف قدمت السور الكبار في التأليف وقد نزل بعضه قبل بعض؟ قال: أجل، ولكن أراهم أنما ألفوه على ما كانوا يسمعون من قراءة النبي صلّى الله عليْه وسلَّم [٥].

ويرى شيخ الاسلام ابن تيمية أن ترتيب السور لم يكن واجباً عليهم منصوصاً، بل كان مفوضاً الى اجتهادهم، ولهذا كان ترتيب مصحف عبد الله على غير ترتيب مصحف زيد وكذلك مصحف غيره [٦].

وقد نقل السيوطي في «الاتقان» أن جمهور العلماء على ان ترتيب السور اجتهادي من الصحابة [٧] وأورد رأياً لابن حجر يقول فيه: ترتيب بعض

---

(١) «تناسق الدرر في تناسب السور» للسيوطي ٦٨ و٦٩ و«عنوان البيان» ٧٣ ـ ٧٧.
(٢) «تفسير القرطبي» ١/٥١.
(٣) «الاتقان» ١/٦٢.
(٤) «الاتقان» ١/٦١.
(٥) «الحوادث والبدع» ٩٧.
(٦) «مجموع الفتاوى» ١٣/٣٩٦
(٧) «الاتقان» ١/٦٢.

السور أو معظمها لا يمتنع أن يكون توقيفياً ثم ذكر أدلته على ذلك [1].

ونقل السيوطي عن أبي عطية أنه مال إلى أن كثيراً من السور كان قد علم ترتيبها في حياته ﷺ كالسبع الطوال، والحواميم، والمفصَّل. وأنَّ ما سوى ذلك يمكن أن يكون فُوِّض الأمر فيه إلى الأمة بعده [2].

ومهما يكن من أمر فالذي أراه في هذا الموضوع هو:

ان ترتيب السور كما هو في المصحف واجب الاتباع، وان كان في بعضه أو معظمه يعود إلى ترتيب الصحابة. ولا يجوز أن تُرتَّب سور المصحف على خلاف الترتيب الذي ارتضاه الصحابة رضوان الله عليهم، وانعقد الاجماع عليه في الأجيال المتتالية التي جاءت من بعدهم حتى عصرنا هذا، وما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، ولذلك فإن ترتيب السور ترتيباً جديداً يراعى فيه النزول أمر مخالف للإجماع ولا يجوز، وهو غير ممكن، ذلك لأن هناك سوراً نزل آخرها قبل أولها واستغرق نزولها مدة من الزمن.

أما ترتيب آيات السورة ترتيباً جديداً فالأمر فيه أشد وهو محظور بإجماع المسلمين، بل قد حكم بعض العلماء بكفر من يفعل ذلك، لأن ترتيب آيات السورة ـ كما رأينا آنفاً ـ كان بأمر من النبي ﷺ بناء على أمر جبريل.

والله أعلم.

* * *

(١) «الاتقان» ١/٦٣ و«تناسق الدرر» ٧٠ و ٧١.

(٢) «تناسق الدرر» ٦٩ و«مقدمتان في التفسير» ٢٧٦ و«البرهان» ١/٢٥٧.

الفصل السابع

في إعجاز القرآن

القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى لرسول الله محمد بن عبد الله ﷺ. وهذا يقتضينا ان نقدم بين يدي بحثنا في الاعجاز حديثاً عن المعجزة.

المعجزة:[1]

المعجزةُ ظاهرة تكررت في حياة الأنبياء صلوات الله عليهم، لتكون دليلا على صدق دعواهم النبوة. وقد قص القرآن الكريم علينا كثيراً من أنباء المعجزات التي جاءت مصدقة لرسل الله المتقدمين من أمثال ناقة صالح وعصا موسى، وركوبه البحر، وإحياء عيسى الموتى، وإبرائه الأكمه والأبرص.

ولا بد في المعجزة من أن تتوافر فيها أمور ثلاثة:

١ ـ انها أمر خارق للعادة غير جار على ما اعتاد الناس من سنن الكون والظواهر الطبيعية. ولذا فهي غير قابلة لتفسيرها على نحو ما يجري عادة في الحياة.

٢ ـ انها أمر مقرون بالتحدي، تحدي المكذبين أو الشاكين، ولا بد

---

(١) انظر «تعريف عام بدين الاسلام» ١٩٥ ـ ٢١١ و«نظام الاسلام: العقيدة والعبادة» ١٠٥ ـ ١٠٨.

أن يكون الذين يتحدون من القادرين على إتيان مثل المعجزة إن لم تكن من عند الله، وإلا فإن التحدي لا يتصور، إذ أننا لا نستطيع ان نتصور بطلا في الملاكمة يتحدى طفلا، لأن هذا الطفل عاجز عن مقابلته[1].

٣ ـ انها أمر سالم عن المعارضة، فستى أمكن لأحد أن يعارض هذا الأمر ويأتي بمثله بطل أن يكون معجزة.

والمعجزة على نوعين: حسية وعقلية.

والملاحظ أن أكثر معجزات الأنبياء السابقين كانت حسية، بينما نجد ان المعجزة الكبرى التي جاء بها نبينا محمد ﷺ عقلية، ونعني بهذه المعجزة القرآن، وهناك معجزات أخرى للنبي ﷺ جاء في الصحيح أخبارها وهي كثيرة[2].

ولعل مرد ذلك الى أن هذه الشريعة آخر الشرائع وستبقى الى أبد الدهر الى يوم القيامة، ومن أجل ذلك فقد خصت بالمعجزة العقلية الباقية، ليراها ذوو البصائر في كل العصور ومهما تقدم الزمان.

... وهكذا فإن معجزات الانبياء السابقين ـ عليهم السلام ـ قد انقرضت بانقراض أعصارهم، فلم يشاهدها إلا من حضرها، بينما معجزة القرآن مستمرة الى يوم القيامة.

وبنحو من هذا الذي ذكرنا فسَّر العلماء قوله ﷺ فيما أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة:

---

(١) وفي ذلك رد لزعم أبي إسحاق النظام من أن العرب سلبوا القدرة على الاتيان بالقرآن مع امكانهم ذلك.

(٢) وقد استوفى الكلام عليها القاضي عياض في كتابه القيم «الشفا في حقوق المصطفى» وابن كثير في «البداية والنهاية» ٦/٦٥ ـ ٣٠١ ووليد الأعظمي في «المعجزات المحمدية».

«ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله اليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تبعاً يوم القيامة»[1].

* * *

الاعجاز:

كان القرآن معجزاً للعرب ذوي الفصاحة وأولي البلاغة، تحداهم فلم يقدر أحد منهم على معارضته، وقد قرَّر القرآن ان مجرد سماع العرب لآياته حجة كبرى عليهم، وكفى هذا دليلا على إعجازه. قال تعالى في صدد الرد على طلبهم المعجزات مشيراً إلى أن هذا الكتاب يغني عن كل معجزة: ﴿وقالُوا: لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ من ربِّهِ. قُلْ إنَّما الآياتُ عِنْدَ اللهِ، وإنَّما أَنَا نذيرٌ مبينٌ. أَوَلَمْ يكْفِهم أنَّا أنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكتابَ يُتْلَى عليهم﴾[2].

فأخبر سبحانه: ان الكتاب الكريم الذي أنزله الله والذي يتلى عليهم آية من آيات الله كاف في الدلالة على صدق نبوته، قائم مقام معجزات كثيرة. فلماذا يطلب هؤلاء القوم الآيات؟ أولا يكفيهم هذا الكتاب الذي يفوق كل معجزات الأنبياء السابقة في الدلالة على نبوته؟

ويقول تعالى: ﴿وإنْ أحدٌ مِنَ المشركينَ استجارَكَ فَأجِرْهُ حتَّى يَسْمَعَ كَلامَ الله﴾[3].

---

(١) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن في باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل ١٥٠/٦ وفي كتاب الاعتصام في باب قول النبي ﷺ «بعثت بجوامع الكلم» ٧٥/٩ ورواه مسلم في كتاب الايمان في باب وجوب الايمان برسالة نبينا محمد ﷺ ٩٢/١ وانظر «اللؤلؤ والمرجان» ٣٠/١ وانظر شرح الحديث في «فتح الباري» ٦/٩ وفي «شرح مسلم» للنووي ١٨٦/٢ و«البداية والنهاية» ٦٩/٦ و«الاتقان» ١١٦/٢ حيث نقل عن شراح الحديث كلاماً وافياً. وانظر «مبارق الازهار في شرح مشارق الأنوار» لابن الملك ٣٠٣/١.

(٢) سورة العنكبوت: ٥٠ ـ ٥١.

(٣) سورة التوبة: ٦.

وإذا سمع كلام الله وتذوقه قاده ذلك إلى الإيمان ان كان من المنصفين، لأنه لا يسمعه متذوق منصف إلا وينتهي به إلى الإيمان.

هذا وقد أيد الواقع التاريخي ذلك، فقد حدثتنا كتب السيرة انَّ مجرد سماع العربي للقرآن كان يوقفه على المعجزة العظمى، ويحمله ذلك على الايمان. وأدرك ذلك كفار قريش، فكانوا ينهون عن سماع القرآن، كما حكى الله سبحانه ذلك عنهم: ﴿وقالَ الذينَ كَفرُوا: لا تَسْمَعُوا لِهَذا القرآن والغَوْا فيهِ لعلَّكم تَغْلِبُون﴾[1].

وكانوا يسعون جهدهم للحيلولة بين رسول الله ﷺ وبين من يأتي من وفود العرب الى مكة. ومن ذلك ما جاء في «سيرة ابن هشام» عن اسلام الطفيل بن عمرو الدوسي:

(قدم الطفيل مكة، ورسول الله ﷺ بها، فمشى إليه رجال من قريش، وكان الطفيل شريفاً شاعراً لبيباً. فقالوا له: يا طفيل إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين اظهرنا قد أعضل بنا[2]، وقد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر، يفرق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين زوجته، وإنما نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا. فلا تكلمنَّه ولا تسمعن منه شيئاً. قال الطفيل: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت ان لا اسمع منه شيئاً، ولا أكلمه، حتى حشوت في أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفا[3] فرقاً من أن يبلغني شيء من قوله وأنا لا أريد أن أسمعه.

فغدوت إلى المسجد، فاذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، فقمت منه قريباً، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله، فسمعت كلاماً

---

(١) سورة فصلت: ٢٦.
(٢) أي اشتد أمره بنا.
(٣) الكرسف: القطن.

حسناً، فقلت في نفسي: وا ثكل أمي، والله اني لرجل لبيب شاعر، ما يخفى عليَّ الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟ فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته، وان كان قبيحاً تركته.

فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ الى بيته، فاتبعته، حتى اذا دخل بيته دخلت عليه، فقلت: يا محمد إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا.. فوالله ما برحوا يخوفونني امرك حتى سددت اذني بكرسف لئلا اسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يسمعني قولك، فسمعت قولا حسناً، فاعرض عليَّ أمرك. فعرض عليَّ رسول الله ﷺ، وتلا عليَّ القرآن. فلا والله ما سمعت قولا قط أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه، فأسلمت وشهدت شهادة الحق)[1].

ومن أشهر الذين دخلوا في الاسلام بسبب إعجابهم باعجاز القرآن: عمر بن الخطاب وأسيد بن حضير وسعد بن معاذ وغيرهم.

قال الاستاذ سيد قطب:

(سحر العرب منذ اللحظة الأولى، سواء منهم في ذلك .من شرح الله صدره للاسلام، ومن جعل على بصره غشاوة.

وإذا تجاوزنا عن النفر القليل الذين كانت شخصية محمد ﷺ وحدها هي داعيتهم إلى الايمان في أول الأمر. كزوجه خديجة. وصديقه أبي بكر. وابن عمه علي، ومولاه زيد، وأمثالهم، فإننا نجد القرآن كان العامل الحاسم، أو أحد العوامل الحاسمة في ايمان من آمنوا أوائل أيام الدعوة، يوم لم يكن لمحمد ﷺ حول ولا طول، ويوم لم يكن للاسلام قوة ولا منعة.

---

(١) «سيرة ابن هشام» ١٣٠/٢ المطبوعة مع الروض الأنف و«البداية والنهاية» ٩٨/٣ - ١٠١ و«تقريب السيرة النبوية لابن هشام» تصنيف محمد الشبراوي ص ١٤٥ وما بعدها، وانظر تتمة القصة هناك وكيف كان هذا الرجل داعية إلى الاسلام بعد ذلك.

وقصة ايمان عمر بن الخطاب وتولي الوليد بن المغيرة نموذجان من قصص كثيرة للايمان والتولي، وكلتاهما تكشف عن هذا السحر القرآني الذي أخذ العرب منذ اللحظة الأولى، وتبينان في اتجاهين مختلفين عن مدى هذا السحر القاهر الذي يستوي في الاقرار به المؤمنون والكافرون)[1].

وقصة ايمان عمر معروفة[2]، وأما قصة تولي ابن المغيرة فيحسن أن نذكر بها:

وموضوع الشاهد منها أن قريشاً أوفدت أبا جهل اليه يطلب منه أن يقول في القرآن قولا يعلم منه الناس جميعاً أنه كاره له، فأجابه الجواب الآتي الذي يدل على تأثره بجمال القرآن: (ماذا أقول فيه؟ فوالله ما منكم رجل أعلم مني بالشعر ولا برجزه ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا، والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وانه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو وما يعلى عليه).

قال ابو جهل: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه.

قال: فدعني افكر فيه.

فلما فكر قال: (إنْ هذا إلا سحر يؤثر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله ومواليه).

وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿إنهُ فكَّرَ وقدَّر، فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ، ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ، ثُمَّ نَظَرَ، ثُمَّ عَبَسَ وبَسَرَ، ثُمَّ أدْبَرَ واستكبَر، فقالَ: إنْ هَذا إلاّ سحرٌ يُؤْثَر﴾[3].

---

(١) «التصوير الفني في القرآن» ص ١١.

(٢) أنظرها في «سيرة ابن هشام» ٢/٩٥ و«البداية والنهاية» ٣/٧٩ و«تقريب السيرة» ص ١٢٤ ـ ١٣٠.

(٣) سورة المدثر: ١٨ ـ ٢٤ وقد أخرج هذه القصة الحاكم عن ابن عباس وانظر «الاتقان» ٢/١١٧ و«تفسير القرطبي» ١٩/٧٤ و«سيرة ابن هشام» ٢/١١ و«البداية والنهاية» ٣/٦١ و«تقريب السيرة» ص ٩٤.

وقد كتب الجاحظ مقالة في موضوع الاعجاز أرى أن اوردها هنا، فإنها مقالة جديرة بالاهتمام، قال الجاحظ:

(بعث الله محمداً ﷺ أكثر ما كانت العرب شاعراً وخطيباً، واحكم ما كانت لغة، وأشد ما كانت عدة، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله، وتصديق رسالته، فدعاهم بالحجة، فلما قطع العذر، وأزال الشبهة، وصار الذي يمنعهم من الاقرار الهوى والحمية دون الجهل والحيرة، حملهم على حظهم بالسيف. فنصب لهم الحرب، ونصبوا له وقتل من عليتهم وأعلامهم وأعمامهم وبني أعمامهم، وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن، ويدعوهم صباحاً ومساء الى أن يعارضوه إن كان كاذباً بسورة واحدة، أو بآيات يسيرة، فكلما ازداد تحدياً لهم بها، وتقريعاً لعجزهم عنها، تكشف عن نقصهم ما كان مستوراً، وظهر منه ما كان خفياً، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة قالوا له: أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف، فلذلك يمكنك ما لا يمكننا، قال: فهاتوها مفتريات.

فلم يرم ذلك خطيب، ولا طمع فيه شاعر... فدل ذلك العاقل على عجز القوم مع كثرة كلامهم، وسهولة ذلك عليهم، وكثرة شعرائهم، وكثرة من هجاه منهم، وعارض شعراء أصحابه وخطباء أمته، لأن سورة واحدة وآيات يسيرة كانت أنقض لقوله، وأفسد لأمره، وأبلغ في تكذيبه، وأسرع في تفريق أتباعه من بذل النفوس، والخروج من الأوطان، وإنفاق الأموال. وهذا من جليل التدبير الذي لا يخفى على من هو دون قريش والعرب في الرأي والعقل بطبقات، ولهم القصيد العجيب، والرجز الفاخر، والخطب الطوال البليغة، والقصار الموجزة، ولهم الاسجاع والمزدوج، واللفظ المنثور، ثم يتحدى به أقصاهم بعد أن أظهر عجز أدناهم. فمحال ـ أكرمك الله ـ أن يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط في الأمر الظاهر، والخطأ المكشوف البين، مع التقريع بالنقص، والتوقيف على العجز، وهم أشد الخلق أنفة، وأكثرهم مفاخرة، والكلام سيد عملهم، وقد احتاجوا اليه،

والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض فكيف بالظاهر الجليل المنفعة؟ فكذلك محال أن يتركوه وهم يعرفونه ويجدون السبيل اليه وهم يبذلون أكثر منه)[1].

* * *

مدار الاعجاز:

الاعجاز دليل النبي ﷺ على صدق نبوته، وعلى أن هذا القرآن تنزيل من حكيم حميد، **ومدار الاعجاز الذي رافقه التحدي إنما كان اسلوب القرآن ونظمه وبيانه، ولم يكن لشيء خارج عن ذلك وآيات التحدي كثيرة.**

لقد تحدى الانس والجن أن يأتوا بمثله فعجزوا عن ذلك مع توافر دواعي اعدائه على معارضته وفصاحتهم وبلاغتهم.

﴿قُلْ لَئِنِ اجتمَعَتِ الإنْسُ والجِنُّ عَلَى اَنْ يَأْتُوا بمثل هَذا القرآن لا يَأْتُون بمثله، ولَوْ كَانَ بعضُهم لبعضٍ ظهيراً﴾[2]. ﴿أم يقولونَ تقوَّلَهُ بلْ لا يُؤمنون. فَليأتُوا بحديثٍ مثلِه إنْ كانُوا صادقين﴾[3].

ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثله فعجزوا:

﴿أم يقولونَ افتراهُ. قُلْ فأْتُوا بعشرِ سورٍ مثلِهِ مُفْتَرَياتٍ وادْعُوا مَن استطعتُم مِنْ دُون الله إنْ كُنْتُم صادقينَ. فإن لَمْ يَستجيبُوا لكم فاعلمُوا أَنَّما أُنزِلَ بعلمِ الله وأنْ لا إلهَ إلاَّ هُوَ فَهَلْ أنْتُمْ مُسْلَمُون﴾[4].

ثم تنازل الى التحدي بسورة من مثله فعجزوا عنه وهم يعلمون عجزهم

---

(١) «الاتقان» ٢/١١٧.
(٢) سورة الاسراء: ٨٨.
(٣) سورة الطور: ٣٤.
(٤) سورة هود: ١٣ ـ ١٤.

وتقصيرهم عن ذلك، وأن هذا ما لا سبيل لأحد إليه أبداً: ﴿وانْ كُنْتُمْ في ريبٍ ممَّا نَزَّلْنَا على عَبْدِنا فأْتُوا بسُورةٍ مِنْ مِثْلِه، وادْعُوا شُهَدَاءكُمْ مِنْ دُونِ الله إنْ كُنْتُمْ صَادِقينَ فإنْ لَمْ تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النارَ التي وَقُودُها الناسُ والحجارةُ أُعِدَّت للكافرين﴾ (١).

قال الامام ابن كثير رحمه الله:

(ومثل هذا التحدي انما يصدر عن واثق بأن ما جاء به لا يمكن للبشر معارضته ولا الاتيان بمثله، ولو كان من متقول من عند نفسه لخاف أن يعارض فيفتضح، ويعود عليه نقيض ما قصده من متابعة الناس له. ومعلوم لكل ذي لب أن محمداً ﷺ من أعقل خلق الله، بل أعقلهم وأكملهم على الاطلاق، فما كان ليقدم على هذا الامر إلّا وهو عالم بأنه لا يمكن معارضته.

وهكذا وقع، فانه من لدن رسول الله ﷺ والى زماننا هذا لم يستطع أحد أن يأتي بنظيره ولا نظير سورة منه، وهذا لا سبيل إليه أبداً)(٢).

* أما إخبار القرآن عن الأمم السابقة فدليل على صدق نبوة الرسول ﷺ، ولكنه ليس هو موضع الاعجاز الذي رافقه التحدي، وذلك كاخباره عن نوح وعاد وثمود وفرعون وغيرهم: ﴿كذلكَ نَقُصُّ عليكَ من انباءِ ما قَدْ سَبَقَ، وقد آتيناكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً﴾ (٣).

﴿ذلكَ مِنْ أنباءِ القُرى نقصُّه عَلَيْكَ، مِنْها قائمٌ وحَصِيدٌ﴾ (٤).

﴿تِلكَ مِنْ أنباءِ الغيب نُوحيها إليكَ، ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ ولا قومُكَ مِنْ قَبْلِ هذا فاصبرْ إن العاقِبَةَ للمتقين﴾ (٥) وقال تعالى مخبراً عن

---

(١) سورة البقرة: ٢٣ وما بعدها.
(٢) «البداية والنهاية»: ٦/٦٥.
(٣) سورة طه: ٩٩.
(٤) سورة هود: ١٠٠.
(٥) سورة هود: ٤٩.

بهتان اليهود: ﴿وبكفرهم وقولِهم على مَرْيَمَ بهتاناً عظيماً وقولِهم إنَّا قتلنا المسيحَ عيسى بنَ مريمَ رسول اللهِ، وما قتلوه وما صلبوه، ولكن شُبِّهَ لهم وإنّ الذين اختلفوا فيه لفي شكٍّ منه، مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ علم إلا اتِّبَاعَ الظنِّ، وما قَتَلُوهُ يقيناً بَلْ رَفَعَهُ الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ (١).

* وكذلك فان إخبار القرآن عن الغيوب المستقبلة يقوم دليلا على صدق نبوة محمد ﷺ (٢)، وعلى أن هذا القرآن من عند الله، ولكنه ليس موضع الاعجاز الذي رافقه التحدي، وذلك كاخباره عن انتصار الروم على الفرس ﴿ألم. غُلِبَتِ الرومُ في أدنى الأرض وهُم من بعد غَلَبِهم سَيَغْلِبُونَ في بضعِ سنين﴾ (٣). وكَاخباره عما سيكون عَليه الصحابَة ﴿عِلِمَ أنْ سيكونُ منكم مَرْضى وآخرونَ يضربونَ في الأرضِ يَبْتَغُون من فضلِ اللهِ وآخرون يُقاتِلون في سبيلِ الله﴾ (٤) وهذه السورة من أوائل ما نزل بمكة. وكاخباره عن انتصار المسلمين في المستقبل ﴿أم يقولونَ نحنُ جميعٌ منتصرٌ سَيُهْزَمُ الجمعُ ويُوَلُّونَ الدُّبُر﴾ (٥) وقد وقع مصداق هذه الهزيمة يوم بدر بعد ذلك. وكإخباره بدخولهم المسجد الحرام محلقين رؤوسهم ﴿لقد صَدَقَ اللهُ رسولَهُ الرؤيا بالحقِّ لتدخلُنَّ المسجدَ الحرامَ إنْ شاءَ اللهُ آمنينَ محلقين رؤوسَكُمْ ومُقَصِّرين لا تخافون﴾ (٦) فدخلوه بعد سنة معتمرين، ودخلوه بعد سنتين فاتحين. وكاخباره بالاشارة الموحية عن حدوث وسائط

---

(١) سورة النساء: ١٥٧ ـ ١٥٨.

(٢) ذكر البغدادي في «الفرق بين الفرق» ص١٢٨ أنَّ من فضائح أبي الهذيل قوله: إن نظم القرآن وحسن تأليف كلماته ليس بمعجزة للنبي ﷺ ولا دلالة على صدقه في دعواه النبوة، وإنما وجه الدلالة منه على صدقه ما فيه من الاخبار عن الغيوب.

(٣) سورة الروم: ١ ـ ٢ وانظر تفصيل هذا الإخبار في كتاب «الاسلام يتحدى» لوحيد الدين خان من ص ١٩٤ حتى ص ٢٠٤.

(٤) سورة المزمل: ٢٠.

(٥) سورة القمر: ٤٤ ـ ٤٥.

(٦) سورة الفتح: ٢٧.

للنقل جديدة غير الوسائل المعروفة وذلك في قوله سبحانه ﴿والخيلَ والبغالَ والحميرَ لتركبوها وزينةً ويخلقُ مالا تعلمونَ﴾ [1].

* وكذلك فان ما تضمنه القرآن من الاخبار عن السرائر ودخائل النفوس من غير ان يظهر منهم بقول أو فعل دليل على صدق نبوته، وعلى ان هذا القرآن من عند الله ولكنه ليس موضع الاعجاز الذي رافقه التحدي، وذلك كاخباره عن حديث نفس خطر ببالهم، فأطلع الله عليه نبيه ﷺ وأنزل قوله: ﴿إذ همّتْ طائفتانِ منكمْ انْ تَفْشَلا [2] والله وليُّهما وعلى الله فليتوكلِ المؤمنونَ﴾ [3] والطائفتان هما بنو حارثة وبنو سلمة اللتان همتا بالتقاعد عن الخروج يوم أحد. وكاخباره عن قول قاله اليهود في أنفسهم: ﴿ويقولونَ في انفسِهم لَوْلاَ يُعذِّبُنَا الله بما نقولُ. حسبُهم جهنمُ يَصْلَوْنَها فبئسَ المصيرُ﴾ [4].

* وكذلك فان احتواء القرآن على شريعة كاملة صالحة لكل زمان ومكان امر يدل على صدق نبوة محمد ﷺ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله، ولكنه ليس هو موضع الاعجاز الذي رافقه التحدي..

* وكذلك فان اشتمال القرآن على نظرات صائبة الى حقائق الكون، وإشارات صادقة الى بعض الامور العلمية في الكون والانسان التي كشف عنها العلم الحديث [5].. ان ذلك يدل على صدق نبوة محمد ﷺ، وعلى ان

---

(١) سورة النحل: ٨ وأنظر أخباراً أخرى أوردها محمد بن إبراهيم الوزير المتوفى ٨٤٠ في كتابه «البرهان القاطع في إثبات الصانع وجميع ما جاءت به الشرائع» ص ٣٢ ـ ٣٣ ط المطبعة السلفية بمصر ١٣٤٩.

(٢) أي أن تجبنا وتضعفا.

(٣) سورة آل عمران: ١٢٢.

(٤) سورة المجادلة: ٨.

(٥) أنظر امثلة عليها في كتب التفسير العلمي. ومنها ما نقره ومنها ما نرده ونأباه.

هذا القرآن من عند الله، ولكنه ليس هو موضع الاعجاز الذي رافقه التحدي.

* إذن فالاعجاز الذي رافقه التحدي إنما هو في اسلوب القرآن ونظمه، وليس في شيء خارج عن ذلك مما أشرنا اليه آنفاً وإن كانت كلها ممَّا يعجز البشر عن ان يأتوا بمثلها وهي دليل على صدق النبي ﷺ ولكن بحثنا عن الإعجاز الذي رافقه التحدي، وقد جلا هذه الفكرة الكاتب الكبير الاستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى فقال:

(كيف استحوذ القرآن على العرب هذا الاستحواذ؟ وكيف اجتمع على الاقرار بسحره المؤمنون والكافرون سواء؟

بعض الباحثين ينظر الى القرآن جملة ثم يجيب. وبعضهم يذكر غير النسق الفني للقرآن أسباباً اخرى يستمدها من موضوعاته بعد أن صار كاملا:

* من تشريع دقيق صالح لكل زمان ومكان.
* ومن إخبار عن الغيب يتحقق بعد أعوام.
* ومن علوم كونية في خلق الكون والانسان.

ولكن البحث على هذا النحو انما يثبت المزية للقرآن مكتملا، فما القول في السور القلائل التي لا تشريع فيها ولا غيب ولا علوم، ولا تجمع بطبيعة الحال كل المزايا المتفرقة في القرآن.

ان هذه السور القلائل قد سحر العرب بها منذ اللحظة الاولى، وفي وقت لم يكن التشريع المحكم، ولا الاغراض الكبرى هي التي تسترعي إحساسهم وتستحق منهم الاعجاب.

لا بدّ إذن ان تلك السور القلائل كانت تحتوي على العنصر الذي

يسحر المستمعين ويستحوذ على المؤمنين والكافرين، وإذا حسب الاثر القرآني في اسلام المسلمين فهذه السور الاولى تفوز منه بالنصيب الأوفى مهما يكن عدد المسلمين من القلة في ذاك الاوان، ذلك أنهم إذ ذاك تأثروا بهذا القرآن وحده.... يجب إذن ان نبحث عن منبع السحر في القرآن قبل التشريع المحكم، وقبل النبوءة الغيبية، وقبل العلوم الكونية. فقليل القرآن الذي كان في أيام الدعوة الاولى كان مجرداً من هذه الأشياء التي جاءت فيما بعد، وكان مع ذلك محتوياً على هذا النبع الأصيل الذي تذوقه العرب فقالوا: إن هذا إلّا سحر يؤثَر)[1].

وقال أيضاً:

(قصة تولي الوليد بن المغيرة واردة في سورة المدثر، وهي السورة الثالثة غالباً في ترتيب النزول، سبقتها العلق وسورة المزمل، أو هي على العموم من السور الأولى في القرآن. فلننظر في هذه السور، إننا نقرأ الآيات المكية في هذه السور فلا نجد تشريعاً محكماً ولا علوماً كونية ولا نجد إخباراً بالغيب. فأين هو السحر الذي تحدث عنه ابن المغيرة بعد التفكير والتقدير؟)[2].

ثم أخذ الاستاذ سيد قطب في تحليل سورة العلق وسورة المزمل ليؤكد ما ذكره من أن موضوع الجمال الفني هو الذي سحر العرب، وهو بالتالي الذي كان موضع الإعجاز.

ثم عمد إلى النظر بشكل عام وإجمالي في الآيات والسور التي سبقت في النزول سورة طه، ذلك لان آيات من هذه السورة كانت السبب في إيمان عمر بن الخطاب الذي سحر بالقرآن وجماله.

---

(١) «التصوير الفني في القرآن» ص ١٧ ـ ١٨.

(٢) «التصوير الفني في القرآن» ص ١٨ ـ ١٩.

قال الاستاذ سيد قطب:

(واننا لننظر فلا نجد فيها جميعاً الا القليل من تلك الاغراض التي يراها بعض الباحثين أكبر مزايا القرآن، ولكننا نجد في هذه السور جمالاً في العرض، وقوة في الاداء، وايقاعاً في العبارة، وإيحاء في الاشارة، على نحو فريد.

ونجد القضية الاعتقادية التي تتولى عرضها معروضة في إطار من مشاهد الكون ومشاعر النفس تستجيش الحسَّ وتستنهض الخيال)[1].

وهكذا أثبت الاستاذ سيد بالدليل الملزم أن إعجاز القرآن الذي رافقه التحدي، وكان معه هذا الاعجاب والسحر إنما كان بلفظه ونسقه وبيانه ونظمه، وليس بشيء خارج عن ذلك[2].

ومن المعلوم أن العرب لم يستطيعوا أن يأتوا بشيء مما تحداهم، مع ما نعلم من حرصهم على ان يقطعوا حجته، ومن لددهم في الخصومة، ومع ما نعرف من فصاحتهم وقدرتهم على البيان فلمّا عجزوا عن معارضته والاتيان بسورة تشبهه على كثرة الخطباء فيهم والبلغاء، نادى عليهم باظهار العجز بالآية التي سبق أن اوردناها، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ لئنِ اجتمَعَتِ الإنسُ والجنُّ على أن يأتُوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتونَ بمثلِهِ ولوْ كانَ بعضُهم لبعضٍ ظهيراً﴾[3].

بل لم ينقل عن أحد منهم أنه حدث نفسه بشيء من ذلك، لأنهم كانوا من المعرفة على جانب يصدهم عن مثل هذه المحاولة الحمقاء، وكذلك كانوا أمناء على البلاغة لا يغالطون فيها ولا يكابرون، فعدلوا الى المعاندة

---

(١) «التصوير الفني في القرآن» ص ٢٣.

(٢) وانظر أيضاً مقدمة استاذنا محمود محمد شاكر لكتاب «الظاهرة القرآنية» لمالك بن نبي رحمه الله.

(٣) سورة الاسراء: ٨٨.

والاستهزاء، والى أن يقولوا: ﴿إنْ هذا إلاّ أساطيرُ الأولين﴾[1] أو أن يقولوا: ﴿إنْ هذا إلا سحر يؤثر﴾[2].

ثم بعد ذلك ارتضوا أن يحكموا السيف في أعناقهم، وسبي ذراريهم وحرمهم، واستباحة أموالهم.. فلو علموا أن الاتيان بمثله في قدرتهم لبادروا إليه لأنه كان أهون عليهم.

القول بالصرفة:

زعم النظّام[3]، وهو من ائمة المعتزلة في العصر العباسي، أن الله تعالى صرف العرب عن معارضته، وكان مقدوراً لهم.

وقد أنكر هذا القول الباطل[4] جمهرة علماء اللغة والدين، وتولوا الرد عليه منذ أيام الجاحظ ثم القاضي عبد الجبار المعتزلي[5] حتى العصر الحاضر، ونورد فيما يأتي طائفة من أقوال العلماء في استنكار هذا الرأي.

* قال الباقلاني رحمه الله:

(على أن ذلك لو لم يكن معجزاً على ما وصفناه من جهة نظمه الممتنع لكان مهما حطّ من رتبة البلاغة فيه، ووضع من مقدار الفصاحة في نظمه، كان أبلغ في الأعجوبة إذا صرفوا عن الاتيان بمثله، ومنعوا عن معارضته، وعدلت دواعيهم عنه، فكان يستغني عن انزاله على النظم البديع، واخراجه

---

(١) سورة الانفال: ٣١.
(٢) سورة المدثر: ٢٥.
(٣) هو إبراهيم بن سيار، أبو اسحاق النظام، توفي سنة ٢٣١ هـ.
(٤) بل نقل الإمام عبد الواحد التميمي في كتابه «اعتقاد الإمام المنبل أبي عبدالله أحمد ابن حنبل» أنَّ الإمام أحمد [كان يكفر من يقول: إن القرآن مقدور على مثله، ولكنَّ الله تعالى منع من قدرتهم. بل هو معجز في نفسه، والعجز قد شمل الخلق] انظر «طبقات الحنابلة» ٢/٣٠٢.
(٥) قال محمود محمد شاكر في مقدمته لكتاب «دلائل الاعجاز» ص ٥:
[لأن القاضي عبد الجبار نفسه، وهو إمام المعتزلة في زمانه، ردَّ مقالة «الصرفة» ونقضها في كتاب «المغني» ١٦/٣٢٣-٣٢٨].

في المعرض الفصيح العجيب، على أنه لو كانوا صرفوا لم يكن من قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل به في الفصاحة والبلاغة وحسن النظم وعجيب الرصف.. فلما لم يوجد في كلام من قبله مثله علم أن ما ادعاه القائل بالصرفة ظاهر البطلان... ومما يبطل ما ذكروه من القول بالصرفة أنه لو كانت المعارضة ممكنة، وإنما منع منها الصرفة لم يكن الكلام معجزاً، وإنما يكون المنع هو المعجز، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه)[1].

* وقال ابن تيمية رحمه الله:

(ومن أضعف الاقوال قول من يقول من أهل الكلام: إنه معجز بصرف الدواعي مع قيام الموجب لها، أو بسلب القدرة الجازمة، وهو أن الله صرف قلوب الامم عن معارضته مع قيام المقتضي التام، أو سلبهم القدرة المعتادة في مثله سلباً عاماً)[2] ثم قال: (الصواب المقطوع به ان الخلق كلهم عاجزون عن معارضته لا يقدرون على ذلك، ولا يقدر محمد نفسه من تلقاء نفسه على أن يبدل سورة من القرآن، بل يظهر الفرق بين القرآن وبين سائر كلامه لكل من له أدنى تدبر)[2].

* وقال ابن كثير رحمه الله:

(وأما من زعم من المتكلمين ان الإعجاز إنما هو من صرف دواعي الكفرة عن معارضته مع امكان[3] ذلك، أو هو سلب قدرتهم على ذلك فقول باطل)[4] ثم قال:

(فالخلق كلهم عاجزون حقيقة وفي نفس الأمر عن الإتيان بمثله، ولو تعاضدوا وتناصروا على ذلك، لا تقدر الرسل الذين هم أفصح الخلق

---

(١) «اعجاز القرآن» تحقيق السيد صقر ص ٢٩ ـ ٣٠.

(٢) «الجواب الصحيح» ٤/٧٦.

(٣) في الاصل: (مع انكار ذلك) وهو تصحيف. (٤) «البداية والنهاية» ٦/٦٩.

وأعظم الخلق وأكملهم أن يتكلموا بمثل كلام الله. وهذا القرآن الذي يبلغه الرسول ﷺ عن الله أسلوب كلامه لا يشبه أساليب كلام رسول الله صلّى الله عليْه وسلّم...)[1].

* وقال الدكتور محمد عبدالله دراز رحمه الله:

(هذا هو القول بالصرفة الذي اشتهر عن النظام من المعتزلة، وهو وان كان اعترافاً في الجملة بصحة الإعجاز إلا أنه لا يقول به إلا أعجمي وشبهه ممن لم يذق للبلاغة طعماً، ولذلك لم يتابعه عليه تلميذه الجاحظ، ولا أحد من علماء العربية، وهو يعد خلاف ما عرف العرب من أنفسهم كما سنبينه)[2].

* وقال الاستاذ سيد قطب رحمه الله:

(أما الرأي القائل بصرفهم عن المحاولة فليس له وزن يقام)[3].

* وقد لخص السيوطي الأفكار التي يتضمنها الرد بأربعة:

١ ـ قوله تعالى: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن...﴾[4] يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو سلبوا القدرة لم تبق فائدة لاجتماعهم، لأنهم عندئذ يكونون كالموتى، وليس عجز الموتى مما يحتفل بذكره.

٢ ـ أجمع العلماء على ان الإعجاز مضاف إلى القرآن. فكيف يكون معجزاً وليس فيه صفة إعجاز؟ بل المعجز هو الله تعالى حيث سلبهم القدرة.

٣ ـ يلزم من القول بالصرفة زوال الإعجاز بزوال زمن التحدي.

---

(١) «البداية والنهاية» ٦/٦٩.

(٢) «النبأ العظيم» ص ٨٩ واقرأ الرد على هذا القول ص ٦٢ من المصدر نفسه.

(٣) «التصوير الفني في القرآن» ص ١٥.

(٤) سورة الاسراء: ٨٨.

ويخلو القرآن عندئذ من الإعجاز. وفي ذلك خرق لإجماع الأمة ان معجزة الرسول العظمى باقية، ولا معجزة له باقية سوى القرآن.

٤ ـ لو كانت المعارضة ممكنة وانما منع منها الصرفة لم يكن الكلام معجزاً، وإنما يكون بالمنع معجزاً، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه [١].

* * *

تلخيص:

ونستطيع أن نلخص ـ فيما يأتي ـ الأمور التي لا بد من معرفتها في موضوع الإعجاز:

١ ـ قليل القرآن وكثيره في شأن الإعجاز سواء.

٢ ـ الإعجاز في أسلوب القرآن ونظمه وبيانه. وخصائصه الفنية مباينة للمعهود من خصائص البيان البشري.

٣ ـ ما في القرآن من إخبار بالغيب وحديث عن الماضي بدقائقه وتفصيلاته، وإخبار بدخائل النفس وأسرارها، وكشف عن حقائق علمية وكونية، وإحكام في التشريع يضمن مصالح الناس... كل ذلك بمعزل عن هذا التحدي المفضي إلى الإعجاز وإن كان دليلاً على انه من عند الله، ولكنه لا يدل على ان نظمه وبيانه مباين لنظم كلام البشر وانه بهذه المباينة كلام رب العالمين [٢].

٤ ـ العرب الذين تحداهم القرآن هم أئمة البيان والفصاحة، ولديهم

---

(١) «الاتقان» ١١٨/٢ وانظر في الرد على القائلين بالصرفة «نكت الانتصار» للصيرفي ص ٢٨٦ وكتاب «لوامع الانوار البهية» للسفاريني ١٧٤/١.

(٢) انظر مقدمة محمود محمّد شاكر لكتاب «الظاهرة القرآنية».

القدرة على تمييز ما كان من كلام البشر، وما ليس من كلامهم، وقد أدركوا أنهم بالتحدي طولبوا بأن يأتوا بمثل هذا الكلام.

٥ ـ إن هذا التحدي لم يقصد به الإتيان بمثل معاني القرآن، بل قصد أن يأتوا بما يستطيعون افتراءه واختلاقه من كل معنى أو غرض مما يعتلج في نِفوس البشر.

٦ ـ هذا التحدي مستمر إلى يوم القيامة وموجه الى الثقلين أيضاً.

٧ ـ وأخيراً فإن العرب الذين نزل عليهم هذا القرآن كانوا يحسون بجماله ويدركون إعجازه، واستمر الأمر كذلك جيلين من الناس الى أن داخلت العجمة سواد الناس فأفسدت سلائقهم، وبدأت العلوم والمعارف الدخيلة تتسرب إلى حياتهم، وقام دجالون مغرضون يريدون تشويه حقيقة الإسلام وساعدهم على تحقيق غرضهم بُعْدُ الناس عن تذوق القرآن وكان من هؤلاء الجعد بن درهم[١] الذي كان يقول بخلق القرآن وينفي عن الله ما أثبت لنفسه من صفات في القرآن، ثم جاء النظام ابراهيم بن سيار فقال بالصرفة. ورد عليه الجاحظ في كتابه «نظم القرآن».

وقد أكثر المعتزلة من إثارة قضية إعجاز القرآن، وكذلك فإن عدداً من علماء أهل السنة المتذوقين للبيان العربي كتبوا في ذلك من أمثال الإمام عبد القاهر الجرجاني[٢] والرازي[٣] والزملكاني[٤].

* * *

(١) هو مبتدع له آراء ضالة وذكره بعضهم في الزنادقة. قتله خالد بن عبد الله القسري سنة ١١٨ هـ. وانظر «الميزان» ١/٣٩٩ و«البداية والنهاية» ٩/٣٥٠ و«لسان الميزان» ٢/١٠٥ و«تاريخ الجهمية والمعتزلة» لجمال الدين القاسمي ص٣٦ـ٣٧ ط مؤسسة الرسالة ١٤٠١ (١٩٨١).

(٢) هو الامام الكبير واضع اسس البلاغة، والذواقة عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة٤٧١ هـ.

(٣) هو محمد بن عمر التيمي البكري المتوفى سنة ٦٠٦ هـ صاحب التفسير.

(٤) هو عبد الواحد بن عبد الكريم بن خلف الانصاري الزملكاني المتوفى سنة ٦٥١ هـ.

ومن الكتب المؤلفة في القرنين الرابع والخامس عن إعجاز القرآن: كتاب الرماني وهو «النكت في إعجاز القرآن»[1] ومؤلفه هو علي بن عيسى الرماني المتوفى ٣٨٤ هـ، وكتاب الخطابي وهو «بيان إعجاز القرآن»[1] ومؤلفه هو حمد بن محمد الخطّابي المتوفى سنة ٣٨٨ هـ وكتاب الباقلاني وهو «إعجاز القرآن»[2] ومؤلفه هو أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ هـ. وكتب الجرجاني وهي «الرسالة الشافية في إعجاز القرآن»[1] و«دلائل الإعجاز»[3] و«اسرار البلاغة»[3] ومؤلفها هو الامام المشهور عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١.

ترجمة القرآن:

هذا وإن مما يتصل بموضوع إعجاز القرآن وسمو بيانه موضوع ترجمة القرآن والحق في هذه المسألة التي كثر الأخذ والرد فيها ان نقرر ان ترجمة القرآن أمر مستحيل، لأن أي نص بليغ تتعذر ترجمته في أي لغة من لغات الأرض فما القول بالكلام الآلهي المعجز؟

أما تفسير معاني آياته بغير اللغة العربية فأمر لا مانع منه، بل إنه واجب، ولكنه لا يسمى قرآناً بحال من الأحوال[4].

---

(١) طبع هذا الكتاب في دار المعارف بمصر تحت عنوان «ثلاث رسائل في إعجاز القرآن» بتحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام. ثم أعاد تحقيق هذا الكتاب محمود محمد شاكر وألحقه بنشرته لكتاب «دلائل الاعجاز» للجرجاني من ٥٧٥ إلى ٦٢٨.

(٢) طبع أكثر من مرة، ومن أجود طبعاته طبعة السيد صقر.

(٣) طبع أكثر من مرة، وأجود طبعاته طبعة محمود محمد شاكر التي صدرت عام ١٤٠٤.

(٤) انظر في ترجمة القرآن: «تفسير الرازي» ٢٠٩/١ و«الموافقات» للشاطبي ومقال محمد الخضر حسين في ترجمة القرآن مجلة نور الاسلام السنة الثانية ١٣٥٠ (١٩٣١ م) و«بلاغة القرآن» لمحمد الخضر حسين جمع علي الرضا التونسي طبع دمشق (١٣٩١) ١٢ - ٢١ و٦٠ - ٦٣ و«الفرقدان النيران في بعض المباحث المتعلقة بالقرآن» للشيخ محمد سعيد الباني و«القول الفصل في ترجمة القرآن إلى اللغات الاعجمية» للشيخ محمد شاكر طبع مصر سنة ١٣٤٣ هـ و«مسألة ترجمة القرآن» لمصطفى صبري، و«حدث الاحداث =

= في الاسلام الاقدام على ترجمة القرآن» لمحمد سليمان و«الادلة العلمية على جواز ترجمة معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية» لمحمد فريد وجدي و«مناهل العرفان» ٢/٣-٦٩ وانظر ما كتبه محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الازهر في كراسة أعاد نشرها في بيروت سنة ١٤٠١ هـ (١٩٨١ م) صلاح الدين المنجد بعنوان «بحث في ترجمة القرآن وأحكامها» وانظر «مجلة الأزهر» المجلد السابع و«المعجزة الكبرى» لمحمد أبو زهرة ٦١١-٦١٩ و«ترجمة القرآن الكريم غرض للسياسة وفتنة في الدين» لمحمد الهيباوي و«ترجمة القرآن» لعبدالله شحادة.

الباب الثاني

تاريخ جمع القرآن

سنتحدث في هذا الباب عن كتابة القرآن في عهد النبي ﷺ، ثم عن جمعه في صحف، أيام أبي بكر، ثم عن نسخه في مصاحف أئمة، أيام عثمان، وسنتحدث أيضاً عن كتابة المصحف وتطورها، وعن جواز كتابته بالإملاء المصطلح عليه بين الناس، وعن نشره وطباعته.

الفصل الأول

في كتابة القرآن في عهد النبيّ ﷺ

كان رسول الله ﷺ أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وقد وصفه القرآن الكريم بأنه أمي فقال عز وجل: ﴿فآمنُوا بالله ورسولهِ النبيِّ الأُميّ﴾[1]. وكان ﷺ حريصاً على حفظ ما ينزل عليه حرصاً جعله يسابق الملك ويعجل بتلاوة ما انزل عليه قبل أن يفرغ ويحرك به لسانه وشفتيه[2] حتى نزل عليه قوله تعالى: ﴿لا تُحرّكْ به لسانكَ لتَعْجَل به إنَّ علينَا جَمْعُه وقُرآنَهُ. فاذا قَرأنَاهُ فاتبع قُرآنَهُ ثُمَّ إنَّ عَلَيْنَا بيَانَهُ﴾[3] جاء في صحيحي البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس: (ان علينا أن نبينه بلسانك. قال: وكان إذا أتاه جبريل أطرق فإذا ذهب قرأه كما وعده الله)[2]. وقال تعالى: ﴿فتعالى اللهُ الملكُ الحقّ ولا تعجلْ بالقرآنِ من قبل ان يُقضى إلَيكَ وحيُهُ وقل ربِّ زدني علماً﴾[4].

وكان ﷺ يخشى أن ينسى شيئاً منه حتى تعهد الله له بعدم نسيان شيء منه وذلك بقوله سبحانه: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَى﴾[5] أي لا تتعب

---

(١) سورة الأعراف: ١٥٨.

(٢) رواه البخاري ٦/١٦٠ ومسلم ٢/٣٥ والترمذي ٤/٢٠٩ من «تحفة الاحوذي».

(٣) سورة القيامة: ١٦ ـ ١٩.

(٤) سورة طه: ١١٤.

(٥) سورة الأعلى: ٦.

نفسك ولا تعجل بالقراءة انك لا تنسى [1].

وكان ﷺ إذا ما انتهى الوحي تلا الآيات التي أنزلت وأمر كتبة الوحي بكتابتها بين يديه فيكتبونها. وكانوا يكتبون على الرقاع والعسب واللخاف والعظام [2].

وكتاب الوحي عديدون أحصى أسماءهم عدد من العلماء وكان من أكثرهم استيعاباً الحافظ العراقي إذ ذكر اثنين وأربعين كاتباً لرسول الله ﷺ [3] وعدهم البرهان الحلبي في (حواشي الشفا) فأوصلهم الى ثلاثة وأربعين [4]. ومن أشهرهم الخلفاء الأربعة ومعاوية بن أبي سفيان وزيد بن ثابت وأبي بن كعب. وليس من شك في أن كتبة الوحي في مكة كانوا أقل عدداً من كتبة الوحي في المدينة، كما كانت مهمة الكتابة ذاتها لم تأخذ طابعها الرسمي الذي أخذته في المدينة. ومهما يكن من أمر فمن المقطوع به أن الكتابة بدأت مع تنزل الوحي، وأن الصحابة كانوا يكتبون الآيات القرآنية في رقاع ومخطوطات شخصية لاستعمالهم، وإننا لنقرأ في

---

(١) انظر «المرشد الوجيز» ص ٢٩ ـ ٣٠ و«تفسير الجلالين» سورة الأعلى.

(٢) الرقاع: تكون من الجلد والرق والكاغد. والعسب: الاطراف العريضة من جريد النخل كانوا يكشفون الخوص ويكتبون في الطرف العريض. واللخاف: صفائح الحجارة وهي جمع لخفة. والعظام معروفة وأشهرها الاكتاف كما جاء في رواية أخرى. وانظر شرحها في «فتح الباري» ٢٢/٩ و«الإتقان» ٥٨/١.

(٣) انظر «شرح الالفية في السيرة» ص ٤٤ و«التراتيب الادارية» للكتاني ١١٦/١.

(٤) «التراتيب الادارية» للكتاني ١١٧/١ وانظر في كتاب الوحي «تاريخ دمشق» لابن عساكر و«بهجة المحافل» لابن عبد البر، و«الاستيعاب» له عند ترجمة زيد، و«عيون الأثر» لابن سيد الناس ٣١٥/١ ط القدسي ١٣٥١ و«إمتاع الاسماع» للمقريزي ١٠١/١ و«فتح الباري» ٢٣/٩ و«تهذيب الأسماء واللغات» للنووي ٢٩/١ و«المرشد الوجيز» ٤٦ و«كتاب النبي» لمحمد مصطفى الأعظمي و«تفسير القرطبي» ٣٥٣/١٣ و«حاشية الشبر املسي على المنهج» عند كتاب القضاء و«حواشي الشفا» للبرهان الحلبي و«المطالع النصرية» للهوريني ص ١٤ و«عنوان البيان في علوم التبيان» لمحمد حسنين مخلوف ص ٦٨.

السيرة ان إسلام عمر كان بسبب قراءته آيات وجدها مكتوبة عند اخته[1].

إن عدد كتبة الوحي قليل بالنسبة الى جماهير المسلمين القراء الذين كانوا يحفظون القرآن بعد أن يتلقوه مشافهة من الرسول ﷺ، والذين كانوا يرددون آياته آناء الليل وأطراف النهار، فنحن نقرأ في أخبارهم أن القرآن ملأ حياتهم كلها، فإذا أووا إلى المسجد كانت تلاوة القرآن ديدنهم، وإذا سحب الليل بثيابه السود على الأرض قاموا في هدوء الليل يتهجدون بالقرآن تسمع لهم دوياً به وحنيناً.

إنَّ من المؤكد المقطوع به أنَّ القرآن كتب كله في عهد رسول الله ﷺ لكنه لم يكن مجموعاً في موضع واحد. قال زيد بن ثابت عن القرآن: (وقبض النبي ﷺ ولم يكن جمع في شيء)[2] وذلك لما نعلم من أن سور القرآن كان معظمها مفتوحاً ومعرضاً لأن تنزل آيات توضع في بعضها، إذ ثبت كما مر أن الرسول ﷺ كان يأمر الكتبة أن: «ضعوا الآية بعد آية كذا من السورة التي يذكر فيها كذا وكذا»[3] ولما كان يتوقع من ورود ناسخ لبعض احكامه أو تلاوته. فلما انقضى نزوله بوفاته ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة[4].

* * *

(١) انظر «سيرة ابن هشام» ٩٥/٢ و«البداية والنهاية» ٧٩/٣ وانظر «مدخل الى القرآن الكريم» لمحمد عبد الله دراز ص ٣٤ ـ ٣٥.

(٢) انظر «فتح الباري» ٩/٩ و «الاتقان» ٥٧/١.

(٣) انظر «السنن الكبرى» ٤٢/٢ والمراجع التي سبق أن ذكرتها في الفصل السادس في ترتيب آيات القرآن وسوره. وانظر مقدمة تفسير سورة التوبة في «ظلال القرآن» ١١١/١٠ من المجلد الرابع.

(٤) هذا قول الخطابي. وانظره في «الاتقان» ٥٧/١.

الفصل الثاني

كتابته في عهد أبي بكر

كان جمع القرآن في موضع واحد في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وذلك بعد معركة اليمامة التي كانت سنة ١٢ هـ[١]، وقد قتل فيها كثيرون كان عدد كبير منهم من القراء، جاء في خبر هذه المعركة ـ كما يروي الطبري ـ أنه (قتل من المهاجرين والأنصار من أهل قصبة المدينة يومئذ ثلثمائة وستون. قال سهل: ومن المهاجرين من غير أهل المدينة والتابعين ثلثمائة)[٢]

وقال: زيد بن طلحة: قتل يوم اليمامة من قريش سبعون، ومن الأنصار سبعون، ومن سائر العرب خمسمائة[٣]. وفي البخاري عن قتادة قال:

(ما نعلم حياً من أحياء العرب أكثر شهيداً وأعز يوم القيامة من الأنصار).

قال قتادة: (حدثنا أنس أنه قتل منهم يوم أحد سبعون، ويوم بئر معونة سبعون ويوم اليمامة سبعون)[٤].

---

(١) هذا قول، وهناك قول آخرأنها كانت سنة ١١ والجمع بينهما ان ابتداءها كان في سنة ١١ والفراغ منها كان في سنة ١٢

(٢) انظر «تاريخ الطبري» ٣/٢٩٦ و«البداية والنهاية» ٦/٣٢٥.

(٣) «مختصر السيرة» لعبدالله بن محمد بن عبد الوهاب ص ٤٧٥.

(٤) وانظر «البداية والنهاية» ٦/٣٢٣ وما بعدها. وانظر «صحيح البخاري».

ويروي لنا قصة جمع القرآن زيد بن ثابت فيقول:

(أرسل إليّ أبو بكر بعد مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر عنده، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال: إن القتل استحرّ[1] يوم اليمامة بقراء القرآن وإني أخشى أن يستحرَّ القتل بالقراء في المواطن، فيذهب كثير من القرآن).

فقلت لعمر: كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؟.

قال عمر: هو والله خير.

فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك. قال أبو بكر يخاطب زيداً:

إنك شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه.

فوالله[2] ' كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القر

قلت: كيف معلون شيئاً لم يفعله رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؟.

قال: هو والله خير.

فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر. قال زيد: فتتبّعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال... وكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر)[3].

---

(١) أي اشتد.

(٢) هذا من كلام زيد.

(٣) الحديث رواه البخاري في «صحيحه» ١٥٠/٦ والترمذي ١٢٢/٤ والبيهقي في «السنن الكبرى» ٤١/٢ وقد نقله الزركشي في «البرهان» ٢٣٣/١ والسيوطي في «الاتقان» =

وفي كلام أبي بكر رضي الله عنه ذكر للدوافع التي حملته على ترشيح زيد لهذا العمل. وقد ذكرها ابن حجر في «الفتح» فقال:

(ذكر له أربع صفات مقتضية خصوصيته بذلك:

١ ـ كونه شاباً، فيكون أنشط لما يطلب منه.

٢ ـ وكونه عاقلا، فيكون أوعى له.

٣ ـ وكونه لا يتهم، فتركن النفس إليه.

٤ ـ وكونه كان يكتب الوحي، فيكون أكثر ممارسة له.

وهذه الصفات التي اجتمعت له قد توجد في غيره لكن مفرقة)[١].

وتدل الروايات العديدة أن عمر بن الخطاب ساعد زيداً مساعدة تامة في هذا الموضوع، ولا عجب في ذلك، فانه صاحب الفكرة وهو الذي اقترحها على أبي بكر رضي الله عنهما. جاء في «كتاب المصاحف»[٢] لابن أبي داود أنَّ أبا بكر قال لعمر وزيد: اقعدا على باب المسجد، فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه[٣].

وقد فسره الشيخ علم الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الصمد السخاوي المتوفى سنة ٦٤٣ هـ في كتابه «جمال القراء وكمال الاقراء» بأن المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ.

= عنه ٥٧/١ وانظر أيضا في «جامع الاصول» ٥٣/٣. وذكر محمد عبدالله دراز رحمه الله في كتابه «مدخل الى القرآن الكريم» ص ٣٦ هذه الرواية وعلق عليها قائلا: (بعد أن أورد لوبلوا LEBLOIS هذه الرواية أردف قائلا: من ذا الذي لم يتمن لو أن أحداً من تلاميذ عيسى الذين عاصروه قام بتدوين تعاليمه بعد وفاته مباشرة) قال ذلك في كتابه «القرآن والتوراة العبرية» ص ٤٧ مذكرة ٥.

(١) «فتح الباري» ١٣/٩.

(٢) كتاب «المصاحف» ص ٦.

(٣) قال ابن حجر في «فتح الباري» ١٥/٩: ورجاله ثقات مع انقطاعه.

وكان غرضهم ـ على ما يقول ابو شامة ـ أن لا يكتب إلا من عين ما كتب بين يدي النبي ﷺ لا من مجرد الحفظ [1].

ويدل هذا على زيادة في التحري، ومبالغة في الاحتياط، فزيد حافظ للقرآن وقد أوتي حظاً كبيراً من المعرفة بكتاب الله، ومع ذلك فلم يكن يكتفي بأن يوافق حفظ غيره حفظه، بل كان يطلب مع ذلك شيئاً مكتوباً، ويطلب من يشهد له على أن هذه الكتابة كانت بين يدي النبي ﷺ أي لم يكن يكتفي بمجرد وجدانه مكتوباً حتى يشهد به من تلقاه سماعاً [2].

قال الليث بن سعد: «أول من جمع القرآن أبو بكر، وكتبه زيد. وكان الناس يأتون زيد بن ثابت، فكان لا يكتب آية إلا بشاهدي عدل» [3] ونقل السيوطي عن كتاب «المصاحف» أن عمر قال: من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن فليأت به وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعسب، وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهيدان وهذا يدل على أنَّ زيداً كان لا يكتفي بمجرد وجدانه مكتوباً حتى يشهد به من تلقاه سماعاً مع كون زيد كان يحفظ القرآن، فكان يفعل ذلك مبالغة في الاحتياط [4].

ونقل ابن حجر في «فتح الباري» [5] عن كتاب «المصاحف» [6] ثناء علي بن أبي طالب على صنيع أبي بكر رضي الله عنهما فقال: (ويؤيده ما

---

(١) «الاتقان» ١/٥٨ وانظر «المرشد الوجيز» ٥٧.

(٢) انظر «المصاحف» لابن ابي داود ص ٥ وقد نقل ذلك عنه السيوطي في «الاتقان» ١/٥٧.

(٣) «الاتقان» ١/٥٨.

(٤) «الاتقان» ١/٥٨.

(٥) «فتح الباري» ٩/١٢.

(٦) انظر «كتاب المصاحف» ص ٥.

أخرجه ابن أبي داود في «المصاحف» باسناد حسن عن عبد خير قال: سمعت علياً يقول: أعظم الناس أجراً أبو بكر رحمة الله على أبي بكر، هو أول من جمع كتاب الله).

إذن فقد تولى أمر الجمع أحد كتاب الوحي الثقات العارفين، وهو زيد ابن ثابت الأنصاري، الذي كان من أكثر الناس حفظاً للقرآن، وكان يساعده في ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكانت خطتها التوثق من نقل ما كتب بين يدي النبي ﷺ مما يحفظانه، وأن يشهد الثقات العدول بأن الكتابة كانت على مرأى من الرسول صلّى الله عليه وسلّم.

وكانت الكتابة على قراطيس وصحف كما جاء في «الاتقان»[1] (عن ابن عمر قال: جمع أبو بكر القرآن في قراطيس). وجمعت هذه الصحف في مكان واحد بعد أن كانت على عسب ولخاف ورقاع وأكتاف في أمكنة متعددة. وقد بذل زيد جهوداً ضخمة إذ أنه استطاع انجاز ذلك في سنة وفي خلافة أبي بكر رضي الله عنه.

ويظهر أنه كان الى جانب هذا العمل الرسمي الذي تولته الدولة محاولات فردية من قبل بعض الصحابة، فقد جمع القرآن في صحف الصحابي الجليل أبي بن كعب، وكذلك فعل المقداد بن عمرو، وعبدالله ابن مسعود، وأبو موسى الأشعري.

فقرأ أهل دمشق على نسخة أُبي وأهل حمص على نسخة المقداد وأهل الكوفة والبصرة على نسختي عبدالله بن مسعود وأبي موسى الأشعري.

وبعد أن انتهى زيد من عملية الجمع سلم ما جمعه الى الخليفة أبي بكر الذي احتفظ به الى أن توفي فآلت هذه الصحف الى الخليفة عمر لأن أبا

---

(١) «الاتقان» ١/٥٩ و«الفتح» ٩/١٦ وأورد أبو شامة قريباً من هذا الخبر في «المرشد الوجيز» ٥٩ - ٦٢ - ٦٤ - ٧٠.

بكر عهد بها إليه لأنه المرشح للخلافة، ثم قام عمر بتسليمها الى ابنته حفصة أم المؤمنين في آخر حياته لأن الخليفة الثالث لم يكن قد بويع في ذلك الوقت [1].

* * *

(١) « المدخل الى القرآن الكريم » ص ٣٧.

الفصل الثالث

نسخ المصاحف أيام عثمان رضيَ الله عَنهُ

كلمة المصحف:

المصحف مثلثة الميم. وقيل: ان الفتح لا يعرف إلا من قبل الكسائي.

والمصحف: مأخوذ من أصحف، أي جعلت فيه الصحف المكتوبة بين دفتين جمعت فيه [١].

وهناك خبر في «كتاب المصاحف» لابن اشته، ذكره السيوطي في «الاتقان» [٢] يدل على أن هذه الكلمة كانت قبل زمان عثمان. وهو:

عن ابن بريدة قال: أول من جمع القرآن في مصحف سالم مولى أبي حذيفة، أقسم لا يرتدي برداء حتى يجمعه، فجمعه، ثم ائتمروا ما يسمونه، فقال بعضهم: سموه السفر قال: ذلك تسمية اليهود، فكرهوه. فقال: رأيت مثله بالحبشة يسمى: المصحف، فاجتمع رأيهم على أن يسموه المصحف. وقال السيوطي تعليقاً على هذا الخبر: اسناده منقطع. وأخرج ابن أبي شيبة في كتاب «المصاحف» أن أول من سمّى المصحف مصحفاً هو أبو بكر [٣].

---

(١) انظر «مختار الصحاح» «والقاموس» و«تاج العروس» و«لسان العرب».

(٢) انظر «الاتقان» ١/٥٨.

(٣) «التراتيب الإدارية» ٢/٢٨١ نقلاً عن السيوطي في كتابه «الوسائل إلى معرفة الأوائل» وذكر عبد السلام هارون في «تحقيق النصوص ونشرها» ص ١١ [أنَّ عمر أول من جمع =

سبب نسخ المصاحف وطريقة النسخ:

يبدو أن خلافاً وقع بين المسلمين في قراءتهم للقرآن ومَردُّه الى أمرين:

١ ـ اختلاف الحروف واللهجات والروايات.

٢ ـ اختلاف ما بين أيديهم من الصحف التي جمعها ناس من الصحابة أشرنا الى بعضهم في الفصل السابق. والأمر الثاني مترتب على الأمر الأول،فإنَّ اختلاف الصحف التي يقرأ بها الناس مقصور على اختلاف الحروف واللهجات.

يدل على ذلك الاختلاف ما رواه البخاري عن أنس قال:

(قدم حذيفة بن اليمان على عثمان ـ وكان يغازي أهل الشام في فتح ارمينية وأذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة ـ فقال لعثمان: أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل الى حفصة ان ارسلي الينا الصحف ننسخها في المصاحف، ثم نردها اليك، فأرسلت بها حفصة الى عثمان فأمر زيد بن ثابت[١] وعبدالله بن الزبير[٢] وسعيد بن العاص[٣] وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام[٤] فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم انتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنه إنما نزل بلسانهم، ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردَّها عثمان الى

= القرآن في مصحف، وتعددت مصاحف المسلمين حتى جمعهم على مصحف واحد] ولم يذكر مصدره في ذلك.

(١) هو زيد بن ثابت الأنصاري ولد سنة ١١ ق هـ وتوفي سنة ٤٥ هـ.

(٢) هو عبدالله بن الزبير الأسدي القرشي ولد سنة ١ هـ وقتل سنة ٧٣ هـ.

(٣) هو سعيد بن العاص الأموي القرشي ولد سنة ٣ هـ وتوفي سنة ٥٩ هـ. وانظر الرسالة التي كتبناها في دراسة حياته.

(٤) هو عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي القرشي ولد سنة ١ هـ وتوفي سنة ٤٣ هـ.

حفصة، وأرسل الى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن المكتوب في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق)[1].

وجاء في «الاتقان» نقلا عن ابن أشته ان أنس بن مالك قال:

اختلفوا في القرآن على عهد عثمان حتى اقتتل الغلمان والمعلمون[2]، أي لم يقتصر الأمر على الجند كما في حديث البخاري السابق بل جاوز ذلك الى المعلمين والغلمان.

وذكر ابن كثير انه (اجتمع خلق من أهل الشام ممن يقرأ على قراءة المقداد بن الأسود[3] وأبي الدرداء، وجماعة من أهل العراق ممن يقرأ على قراءة عبدالله بن مسعود وأبي موسى وجعل من لا يعلم بسوغان القراءة على سبعة أحرف يفضل قراءته على قراءة غيره، وربما خطأ الآخر أو كَفَّرَه فأدى ذلك الى اختلاف شديد، وانتشار الكلام السيء بين الناس)[4].
وأخرج البغوي عن مصعب بن سعد قال: لما كثر اختلاف الناس في القرآن قالوا: قراءة ابن مسعود، وقراءة أبيّ، وقراءة سالم مولى أبي حذيفة. قال: فجمع عثمان أصحاب رسول الله ﷺ فقال: إني رأيت أن اكتب مصاحف على حرف زيد بن ثابت، ثم ابعث بها إلى الأمصار. قالوا: نعم ما رأيت. قال: فأي الناس أعرب؟ قالوا: سعيد بن العاص. قال: فأي الناس

---

(١) «صحيح البخاري» ١٥١/٦ و«الترمذي» ١٢٣/٤ و«السنن الكبرى» للبيهقي ٤١/٢ و«شرح السنة» للبغوي ٥٢٠/٤ و«المقنع» ٥ ـ ٦ أقول: هذه هي الرواية الصحيحة التي تجعل رجال اللجنة أربعة وحسبنا أن البخاري أخرجها. وهناك روايات نجد فيها زيادة ونقصاً. ومن ذلك ما جاء في «المقنع» ٤.

(٢) «المقنع» ٧ و«الاتقان» ٦١/١.

(٣) وهو المقداد بن عمرو وانظر خبره في «الاصابة» ٤٣٣/٣ ـ ٤٣٤ توفي سنة ٣٣ وهو ابن سبعين سنة.

(٤) «البداية والنهاية» ٢١٧/٧ و«السنن الكبرى» ٤٢/٢ وانظر قريباً منه في «فتح الباري» ١٨/٩.

اكتب؟ قالوا: زيد بن ثابت كاتب الوحي. قال: فليملِ سعيد وليكتب زيد بن ثابت[1].

فكان عمل عثمان رضي الله عنه جمعاً للناس على مصحف واحد، ودرءاً لفتنة ومفسدة. أما الصحف التي اعتمدتها اللجنة الرباعية فقد أعادها عثمان الى حفصة بعد الانتهاء من النسخ، وبقيت عندها حتى وفاتها. جاء في «المصاحف» لابن أبي داود ما يأتي: (حاول مروان بن الحكم أن يأخذها منها ليحرقها، فأبت، حتى إذا توفيت أخذ مروان الصحف وأحرقها، وقال: انما فعلت هذا لأن ما فيها قد كتب وحفظ بالمصحف الامام، فخشيت إن طال بالناس زمان أن يرتاب في شأن هذه الصحف مرتاب)[2].

ذكر السيوطي نقلا عن كتاب ابن اشته انهم عندما اجتمعوا للكتابة كان عملهم انهم إذا اختلفوا وتدارؤوا في أي آية قالوا: هذه اقرأها رسول الله ﷺ فلاناً، فيرسل اليه وهو على رأس ثلاث من المدينة. فيقال له: كيف اقرأك رسول الله ﷺ آية كذا وكذا؟ فيقول: كذا وكذا. فيكتبونها[3]. ويبدو انه قد اتبع في هذا الجمع ما اتبع في الجمع الأول أيام أبي بكر من البحث عن الآيات مكتوبة في عصر النبي ﷺ وأن يشهد اثنان بكتابتها في عصره[4].

ولقد بذلت هذه اللجنة الرباعية قصارى جهودها في سبيل اتقان العمل وتحري الصواب فيه حتى كان عملها كاملاً تاماً.

---

(١) «شرح السنة» ٤/٥٢٣ - ٥٢٤ و«المصاحف» ٢٣ - ٢٤ و«فضائل القرآن» لابن كثير ص ٢١.

(٢) «المصاحف» ص ٢٤.

(٣) «الاتقان» ١/٩٥ و«فتح الباري».

(٤) المعجزة الكبرى القرآن» لمحمد أبو زهرة ص ٣٣ وانظر «تفسير القرطبي» ١/٥١.

قال ابن حجر: وكان ذلك في حدود سنة ٢٥ هـ وغفل بعض من أدركناه فزعم أنه كان في حدود سنة ٣٠ ولم يذكر له مستنداً[١]. ونستطيع أن نقرر الأمور التالية عن عمل عثمان رضي الله عنه:

١ ـ اختيرت اللجنة اختياراً موفقاً من الأنصار والمهاجرين، وكان نصيب قريش فيها كبيراً لأن القرآن نزل بلغة قريش كما قال عثمان[٢]. وأفرادها من الصلاح والحفظ والمعرفة بمكان كبير، ومع ذلك فقد كانت لا تدخر وسعاً في السؤال والبحث والتثبت ما استطاعت الى ذلك سبيلا، وكان افرادها يحفظون القرآن في صدورهم.

ولا بد من التنبيه الى أنَّ أحد أعضائها وهو زيد بن ثابت هو الذي قام بالجمع في المرة الأولى أيام أبي بكر الصديق.

٢ ـ جردت المصاحف مما ليس قرآناً كالشروح والتفاسير التي كان يثبتها بعض الصحابة على مصاحفهم.

٣ ـ اعتمدت اللجنة على صحف أبي بكر رضي الله عنه اعتماداً رئيسياً، حيث جعلتها الأصل، ثم استعملت كل ما أمكنها من وسائل التثبت والاستيثاق.

٤ ـ كتب القرآن بشكل يجمع القراءات التي نزل بها القرآن، وقد ساعد على ذلك عدم التشكيل وعدم التنقيط[٣].

---

(١) «فتح الباري» ٩/١٧.

(٢) «الاتقان» ١/٥٩. وهذا القول مروي عن عمر رضي الله عنه. قال ابن تيمية: (ثبت عن عمر بن الخطاب أنه قال لابن مسعود: أقرىء الناس بلغة قريش فإنَّ القرآن نزل بلسانهم) «الفتاوى» ١٩/٢٨ و «فتح الباري» ٩/٩. وقال أبو شامة ص٦٩: (ومعنى قول عثمان «إن القرآن أنزل بلسان قريش» أي معظمه بلسانهم ... أو المراد نزل في الابتداء بلسانهم ثم أبيح بعد ذلك أن يقرأ بسبعة أحرف).

(٣) أقول: وهناك من يزعم أنَّ القرآن كان منقوطاً مشكولاً، ويعتمدون في زعمهم الباطل هذا على نصٍّ ورد في «النشر» ١/٣٣. =

٥ ـ استطاعت هذه اللجنة أن تنجح في عملها خير نجاح، فلقد حسمت هذه المصاحف الخلاف، وحالت دون فرقة المسلمين حول كتاب الله الخالد الكريم.

قال ابن تيمية يلخص عملية جمع القرآن:

(... فلما كان العام الذي قبض فيه عارضه جبريل به (أي بالقرآن) مرتين، والعرضة الاخيرة هي قراءة زيد بن ثابت وغيره، وهي التي أمر الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلي بكتابتها في المصاحف، وكتبها أبو بكر... ثم أمر عثمان في خلافته بكتابتها في المصاحف، وارسالها الى الأمصار باتفاق من الصحابة)[1].

* * *

= ولو كان ذلك كذلك لاستفاض النقل في ذلك ولم يقتصر الأمر على هذا الخبر الواهي ولما كان هذا التورع الشديد من استعمال النقط والتشكيل من عدد من علماء السلف كما سيمرُّ معنا.

هذا شيءٌ ومعرفة الناس للنقط في وقت مبكر شيءٌ آخر، ويعتمد من يرى مثل هذا الرأي على النص المشار إليه آنفاً وعلى ورقة من أوراق البردي زعموا في تقديرهم أن تاريخها يعود إلى سنة ٢٧ هـ ووجدوا فيها هذه النقط. وهذا محل نظر كبير ودون ثبوته خرط القتاد.

هذا وقد قرَّر ـ خطأ ـ القلقشندي في «صبح الأعشى» ٣/١٥١ (أن الإعجام موضوع مع وضع الحروف) قرّر هذا بعدما أورد أسطورة تدّعي أنَّ أول من وضع الحروف العربية ثلاثة رجال من قبيلة بولان وهم: مرارة بن مرة الذي وضع الصور، وأسلم بن سدرة الذي فصل ووصل، وعامر بن جدرة الذي وضع الإعجام. وقال مرجحاً ما تقتَضيه هذه الأسطورة الباطلة المضحكة: (إذ يبعد أن الحروف قبل ذلك ـ أي قبل إعجام المصحف ـ مع تشابه صورها كانت عريَّةً عن النقط إلى حين نقط المصحف) أقول: وهذا الذي استبعده هو الذي تقتضيه طبيعة نشأة العلوم والفنون والمخترعات تبدأ بسيطة ثم تدخل عليها إضافات. وانظر في هذا أيضاً «مصادر الشعر الجاهلي» لناصر الدين الأسد الذي ذهب مثل هذا المذهب الباطل معتمداً على حجج باطلة وأدلة واهية. والله أعلم.

(١) «فتاوى ابن تيمية» ١٣/٣٩٥.

عدد المصاحف العثمانية:

* المشهور انها خمسة مصاحف، ارسل بها عثمان رضي الله عنه الى الآفاق الخمسة وهي: مكة، والشام، والبصرة، والكوفة، واحتفظ بواحد منها لأهل المدينة.

* وهناك قول آخر أنها سبعة، ولكن هناك خبران في أسماء البلاد التي ارسلت اليها فالأول أورده ابن كثير في «البداية والنهاية»[1] فحواه أن عثمان رضي الله عنه كتب سبعة مصاحف: ارسل الى مكة مصحفاً، والى أهل مصر آخر، وبعث الى البصرة مصحفاً والى الكوفة بآخر، وأرسل الى الشام مصحفاً، والى اليمن مثله، وأقر بالمدينة مصحفاً.

والثاني أورده ابن أبي داود في «المصاحف»[2] وذكره أبو شامة في «المرشد»[3] والسيوطي في «الاتقان»[4] فحواه أن عثمان رضي الله عنه وجه بسبعة مصاحف، هذه الخمسة المشهورة (أي لمكة والمدينة والشام والبصرة والكوفة) وأرسل مصحفاً الى اليمن ومصحفاً الى البحرين. قال أبو علي الأهوازي: ووجه بمصحف الى اليمن، وبمصحف الى البحرين فلم نسمع لهما خبراً، ولا رأينا لهما أثراً[5]. قال السيوطي: ولكن لم يسمع لهذين المصحفين خبر.

والفرق بين الخبرين هو المصحف السابع، أأرسل إلى مصر أم إلى البحرين.

* ولم يكتف عثمان رضي الله عنه بتوجيه هذه المصاحف الى هذه البلاد

---

(١) «البداية والنهاية» ٧/٢١٧.
(٢) «المصاحف» ص ٢٤.
(٣) «المرشد الوجيز» ص ٧٣ وص ١٥٨.
(٤) «الاتقان» ١/٨١.
(٥) «المرشد الوجيز» ص ١٥٩.

وانما اختار حفاظاً يثق بهم وأنفذهم الى الأقطار الاسلامية التي أرسل اليها المصاحف ليقرئوا أهل البلد المرسل اليهم، فأرسل مع كل مصحف قارئاً متقناً يقوم بمهمة التعليم والاقراء [1] .

* ويقال لهذه المصاحف الائمة، وليست مكتوبة بخط عثمان، وانما يقال لها المصاحف العثمانية نسبة الى أمره وزمانه وامارته [2] .

رأي الصحابة في صنيع عثمان:

كان جمع الناس على مصحف واحد من مناقب عثمان الجليلة، وحسناته العظيمة، وقد ذكر ابن كثير أن حذيفة بن اليمان عندما جاء عثمان وأخبره بما أخبره مما أشرنا اليه آنفاً قال: (فعند ذلك جمع عثمان الصحابة، وشاورهم في ذلك، ورأى أن يكتب المصحف على حرف واحد، وأن يجمع الناس في سائر الاقاليم على القراءة به دون سواه) [3] .

وذكر ابن أبي داود عن علي رضي الله عنه انه قال:

(لا تقولوا في عثمان إلا خيراً، فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا. قال عثمان: ما تقولون في هذه القراءة، فقد بلغني أن بعضهم يقول: إن قراءتي خير من قراءتك، وهذا يكاد يكون كفراً؟ قلنا: فما ترى؟ قال: أرى أن يجمع الناس على مصحف واحد فلا تكون فرقة ولا اختلاف. قلنا: فنعم ما رأيت [4]).

إذن فما كان صنيع عثمان إلا عن موافقة من الصحابة وبعد استشارتهم.

---

(١) «مناهل العرفان» ١/٣٩٦.

(٢) «البداية والنهاية» ٧/٢١٧ وانظر «فضائل القرآن» لابن كثير ص ١٥ طبعة عيسى البابي الحلبي الملحقة بالتفسير.

(٣) «البداية والنهاية» ٧/٢١٧، وانظر «فضائل القرآن» ص ١٥.

(٤) «المصاحف» ص ٢٢. ونقله عنه السيوطي في «الاتقان» ١/٥٩.

ونقل ابن كثير عن البيهقي وغيره أنهم رووا عن علي رضي الله عنه أنه قال:

(أيها الناس إياكم والغلو في عثمان تقولون: حرق المصاحف، والله ما حرقها إلا عن ملأ من أصحاب محمد ﷺ ولو وليت مثلها ولي لفعلت مثل الذي فعل[1]).

وروى الطبري عن علي قوله:

(لا تسموا عثمان شقاق المصاحف، فوالله ما شقها إلا عن ملأ منا أصحاب محمد ولو وليتها لعملت مثل الذي عمل[2]).

الفرق بين جمع أبي بكر وعثمان:

* كان جمع أبي بكر الصديق للقرآن خشية أن يذهب من القرآن شيء بذهاب حملته، لأنه لم يكن مجموعاً في موضع واحد، فجمعه ـ جزاه الله عن الاسلام خيراً ـ في صحف مرتباً لآيات سوره على ما وقفهم عليه النبي صلّى الله عليه وسلّم.

* وكان جمع عثمان حسماً لخلاف ذر قرنه في صفوف المسلمين، وجمعاً للمسلمين على نسخة موحدة من المصحف، ذلك أنه كثر اختلافهم في وجوه القراءة، فأدى ذلك بهم الى أن يخطىء بعضهم بعضاً، فخشي من تفاقم الأمر في ذلك، فنسخ تلك الصحف في مصحف واحد، مرتباً لسوره الترتيب النهائي[3] واقتصر في الكتابة من سائر اللغات على لغة قريش محتجاً بأنه نزل بلغتهم كما قال للقرشيين الثلاثة: (إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش؛ فانه انما نزل بلسانهم)،

---

(١) «البداية والنهاية» ٢١٨/٧، و«المقنع» ص٨.

(٢) «تاريخ الطبري» ١١٤/٦.

(٣) «الاتقان» ٥٩/١.

وانه ان كان قد وسع في قراءته بلغة غيرهم في بادىء الأمر دفعاً للحرج والمشقة، فإنَّ الحاجة الى ذلك قد انتهت، فاقتصر على لغة قريش[1] وكذلك فقد حذف عثمان من المصاحف كل الشروح والتأويلات وما نسخت تلاوته[2].

قال الباقلاني: (لم يقصد عثمان قصد أبي بكر في جمع نفس القرآن بين لوحين، وانما قصد جمعهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبي ﷺ وإلغاء ما ليس كذلك، وأخذهم بمصحف لا تقديم فيه ولا تأخير، ولا تأويل أثبت مع تنزيلٍ، ومنسوخ تلاوته كتب مع مثبت رسمه ومفروض قراءته وحفظه خشية دخول الفساد والشبهة على من يأتي بعد)[3].

أين المصاحف العثمانية الآن؟

لا يُعرف لهذه المصاحف الآن مكان توجد فيه على وجه اليقين. على أنَّ هذه المصاحف العثمانية كانت موجودة طوال العصور السابقة.

فقد ذكر ابن جبير المتوفى سنة ٦١٤ هـ في رحلته عند حديثه عن جامع دمشق أنَّ (في الركن الشرقي من المقصورة الحديثة في المحراب خزانة كبيرة فيها مصحف من مصاحف عثمان رضي الله عنه، وهو المصحف الذي وجّه به إلى الشام، وتفتح الخزانة كل يوم إثر الصلاة، فيتبرك الناس بلمسه وتقبيله)[4].

وقد رأى ابن فضل الله العمري (أحمد بن يحي بن محمد أبو العباس) المتوفى سنة ٧٤٩ هـ مصحفاً في دمشق وصفه بأنه أحد المصاحف العثمانية.

---

(١) «عنوان البيان في علوم التبيان» لمحمد حسنين مخلوف ص ٩٧.

(٢) «الاتقان» ١/٦٠.

(٣) «البرهان» ١/٢٣٥ و«الاتقان» ١/٦٠.

(٤) «رحلة ابن جبير» تحقيق حسين نصار ص٢٥٧.

قال: (..وإلى جانبه الأيسر المصحف العثماني بخط أمير المؤمنين عثمان ابن عفان رضي الله عنه)[1].

وذكر ابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ هـ في كتابه « فضائل القرآن » أنَّ في دمشق مصحفاً من هذه المصاحف فقال:

أما المصاحف العثمانية الأئمة فأشهرها اليوم الذي في الشام بجامع دمشق، عند الركن شرقي المقصورة المعمورة بذكر الله، وقد كان قديماً بمدينة طبرية، ثم نقل منها إلى دمشق في حدود[2] سنة ٥١٨ هـ. وقد رأيته كتاباً عزيزاً جليلاً عظيماً فخماً بخط حسن مبين قويّ، بحبرٍ محكم في رق[3] أظنه من جلود الابل)[4].

كما ذكر ابن بطوطة المتوفى سنة ٧٧٩ في « رحلته » هذا المصحف الشامي فقال: (وفي الركن الشرقي منها إزاء المحراب خزانة كبيرة فيها المصحف الكريم الذي وجَّهه أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى الشام، وتفتح تلك الخزانة كل يوم جمعة، بعد الصلاة، فيزدحم الناس على لثم ذلك المصحف الكريم..)[5]

---

(١) « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » لابن فضل الله العمري تحقيق أحمد زكي باشا صفحة ١٩٥. وقوله (بخط أمير المؤمنين) تجوُّزٌ منه. والأقرب للصواب (بأمر أمير المؤمنين).

(٢) قال السيوطي في « تاريخ الخلفاء » صفحة ٤٢٨: (وفيها - أي في سنة ٤٩٢ هـ - نقل المصحف العثماني من طبرية إلى دمشق خوفاً عليه، وخَرَجَ الناس لتلقيه، فآووه في خزانة بمقصورة الجامع).

(٣) جاء في « صبح الأعشى » للقلقشندي ٤٨٦/٢ ما يأتي: (وأجمع رأي الصحابة رضي الله عنهم على كتابة القرآن في الرَّق لطول بقائه، أو لأنه الموجود عندهم حينئذٍ، وبقي الناس على ذلك إلى أن ولي الرشيد الخلافة، وقد كثر الورق، وفشا عمله بين الناس أمر ألاّ يكتب الناس إلا في الكاغد..).

(٤) « فضائل القرآن » لابن كثير ص ١٥ طبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٧١ هـ-١٩٥٢ م، الملحقة بالجزء الرابع من « تفسير ابن كثير ».

(٥) « رحلة ابن بطوطة » ٥٤/١.

وذكر ابن بطوطة أيضاً أنه رأى مصحفاً من المصاحف العثمانية عندما دخل البصرة في رحلته فقال:

وأهل البصرة لهم مكارم أخلاق، وإيناس للغريب وقيام بحقه، فلا يستوحش فيما بينهم غريب، وهم يصلون الجمعة في مسجد أمير المؤمنين علي رضي الله عنه الذي ذكرته... وهذا المسجد من أحسن المساجد، وصحنه متناهي الانفساح، مفروش بالحصباء الحمراء... وفيه المصحف الكريم الذي كان عثمان رضي الله عنه يقرأ فيه لما قتل، وأثر تغيير الدم في الورقة التي فيها قوله تعالى ﴿فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم﴾ [1].

وذكر ابن بطوطة أنه رأى بعض تلك المصاحف العثمانية أو بعض صحائف منها خلال رحلته في مراكش وغرناطة وبعض المدن الاخرى [2]. والله أعلم.

ويبدو أن ابن الجزري المتوفى سنة ٨٣٣ هـ قد رأى المصحف الشاميّ الذي تحدثنا عنه آنفاً [3].

واستمرَّ هذا المصحف الشاميُّ محفوظاً في الجامع الأموي إلى مطلع القرن الرابع عشر، ثم فقد هذا المصحف. فبعضهم يرى أنه نقل الى استامبول، ثم لم يعرف مكان وجوده، وبعضهم يرى أنه موجود في مكتبة من مكتباتها. وبعضهم يرى أنه احترق.

قال الأستاذ محمد كرد علي خلال حديثه عن الجامع الأموي:

(حتى إذا كانت سنة ١٣١٠ هـ سرت النار إلى جذوع سقوفه فالتهمتها في أقل من ثلاث ساعات.. وحرق فيه مصحف كبير بالخط

---

(١) «رحلة ابن بطوطة» ١/١١٦.

(٢) نقل ذلك صبحي الصالح عن المستشرق كازانوفا. وانظر «مباحث في علوم القرآن» ص ٨٧.

(٣) «مباحث في علوم القرآن» لصبحي الصالح ٨٨ ـ ٨٩.

الكوفي، كان جيء به من مسجد عتيق في بصرى، وكان الناس يقولون: إنه المصحف العثماني)[1].

وقال الدكتور عبد الرحمن الشهبندر:

(وكان لدمشق الشام أن حصلت على نسخة من هذه المصاحف العثمانية، ولكنها يا للأسف أتلفتها النار في الحريق الذي التهم الجامع الأموي منذ ثلاثين سنة)[2] وقد كتب هذا الكلام في شهر نيسان سنة ١٩٢٢ م.

ونقل الدكتور صبحي الصالح عن الدكتور يوسف العش عن الشيخ عبد المحسن الأسطواني[3] أنه قد رأى هذا المصحف قبل احتراقه وكان محفوظاً بالمقصورة وله بيت خشب[4].

وذكر الأستاذ الكوثري أن الشيخ عبد الحكيم الأفغاني المتوفى سنة ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨ م) نسخ مصحفاً مطابقاً لرسم هذا المصحف العثماني قبل وفاته وزعم الكوثري أن هذا المصحف العثماني نقل في أثناء الحرب العامة الى استامبول[5]. أما مصحف الأفغاني فذكر أنه محفوظ عند بعض أصحابه بدمشق[5].

وذكر الكوثري أيضاً أن مصحف الكوفة كان في حمص وأنه نقل إلى العاصمة استامبول في أثناء الحرب العامة[5] ولم يذكر في أي مسجد كان في حمص.

وكذلك فقد ذكر أن مصحف المدينة كان في المدينة وانه نقل أيضاً

---

(١) «خطط الشام» لمحمد كرد علي ٥/٢٧٩.

(٢) «مذكرات عبد الرحمن الشهبندر» صفحة ٣٤ طبع دار الإرشاد.

(٣) انظر ترجمته في «الأعلام» للزركلي وفي كتاب «عشرة من الناس» لزهير المارديني.

(٤) «مباحث في علوم القرآن» ص ٨٨ ـ ٨٩.

(٥) «مقالات الكوثري» ص ١٢.

الى استامبول في أثناء الحرب[1].

وذكر الكوثري أن كثيراً (من الماكرين يجترئون على تلطيخ بعض المصاحف القديمة بالدم، ليظن أنه الذي كان بيد عثمان رضي الله عنه حينما قتل، وكم من مصاحف ملطخة بالدم في خزانات الكتب، والله ينتقم منهم)[2].

وهناك الآن مصاحف أثرية في دار الكتب المصرية يقال عنها: إنها مصاحف عثمانية، ولكنَّا نستبعد أن تكون كذلك لوجود الزركشة والزينة والنقوش الفاصلة بين السور، ولوجود علامات لبيان أعشار القرآن.

قال الزرقاني: (ومعلوم أن المصاحف العثمانية كانت خالية من كل هذا ومن النقَط والشكل أيضاً)[3].

---

(١) «مقالات الكوثري» ص ١٢ وإن صحَّ هذا الخبر فلعلَّه هو الذي ذكره منير نصيف في مجلة العربي العدد ١١٠ (شهر كانون الثاني سنة ١٩٦٨) في استطلاع قام به عن استامبول قال ص٤٢ من العدد المذكور: (شاهدنا القرآن الكريم المخطوط على جلد الغزال، الذي كان يتلوه ثالث الخلفاء عثمان بن عفان رضي الله عنه عندما استشهد في منزله، وعلى صفحة منه رأينا آثار دمائه الطاهرة).

(٢) «مقالات الكوثري» ص ١٣.

(٣) «مناهل العرفان» ١/٣٩٧.

وانظر خبر المصاحف العثمانية في الكتب التي ذكرناها في حواشي هذا البحث وانظر ما ذكره المقري في «نفح الطيب» ٢/٨٦ و ٩٩ و١٣٥. ومما يتصل بالمصاحف القديمة الخبر الذي نشرته جريدة الأهرام القاهرية بعددها الصادر بتاريخ ١٩٧٦/٤/٨ صفحة ٥. وجاء في الخبر ما يأتي: (يدور الآن تحقيق حول المصحف الذي اختفى من دار الكتب، وتمَّ العثور عليه بالصدفة عندما اشترى الدكتور هنري عوض من بائع (روبابيكا) ـ أي بائع الملابس والأمتعة العتيقة ـ بسبعين جنيهاً في حين يؤكد وكيل الآثار بأن قيمته لا تقدر بثمن. والمصحف ـ موضوع الحديث ـ مكوَّن من ١٤١ ورقة من الرَّق، كتبه أبو سعيد الحسن البصري في عام سبعة وسبعين هجرية.. خلال خلافة عبد الملك ابن مروان، وقد كتبه بالخط الكوفي الدقيق وفي كل صفحة ٣٠ سطراً. وفاتحة الكتاب ورؤوس السور وفواصل الآيات بها زخارف مذهبة. وهو أول مصحف مؤرخ موجود الآن في العالم).

خاتمة

وبذلك فاننا نستطيع الجزم بأن النقل للقرآن كان متواتراً ويقول هذا بعض أعداء الاسلام أو بعض الناس الذين ليسوا مسلمين، فقد نقل الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز ما يلي:

(قال لو بلوا: إن القرآن هو اليوم الكتاب الرباني الوحيد الذي ليس فيه تغيير يذكر) (وقال موير: إن المصحف الذي جمعه عثمان قد تواتر انتقاله من يد ليد حتى وصل إلينا بدون أي تحريف ولقد حفظ بعناية شديدة بحيث لم يطرأ عليه أي تغيير يذكر، بل نستطيع أن نقول إنه لم يطرأ عليه أي تغيير على الاطلاق في النسخ التي لا حصر لها والمتداولة في البلاد الاسلامية الواسعة فلم يوجد إلا قرآن واحد لجميع الفرق الاسلامية المتنازعة، وهذا الاستعمال الاجماعي لنفس النص المقبول من الجميع حتى اليوم يُعَدُّ أكبر حجة ودليل على صحة النص المنزل الموجود معنا)[1].

* * *

(١) «مدخل الى القرآن» ص ٤٠.

الفصل الرابع

كتابة المصاحف وتطورها

الاملاء العثماني:

الاملاء الذي كتبت به اللجنة املاء خاص بعصر الصحابة، وهو مختلف عن املائنا، فهو خال من النقط والشكل والزخرفة، وهو مخالف في عدد من كلماته لقواعد الاملاء المعروفة، وذكر السيوطي القواعد الستة التي ينحصر أمر الرسم فيها فقال:

(وينحصر أمر الرسم في ست قواعد: الحذف، والزيادة، والهمز، والبدل، والوصل، والفصل، وما فيه قراءتان فكتب على إحداهما)[1].

ثم فصل القول في كل قاعدة، وذكر ما لم يدخل تحت هذه القواعد منها.

وقد اكتسب هذا الرسم الذي سمي بالرسم العثماني كثيراً من القدسية، بسبب إجماع المسلمين على استحسان عمل عثمان رضي الله عنه.

ان هذه المبالغة في احترام هذا الرسم لتمثل لنا الامعان في المحافظة على هذا الكتاب الكريم من كل زيادة أو نقصان من قبل المسلمين، حتى اننا ما زلنا الى الآن نرى المصاحف مكتوبة بالرسم العثماني الذي كتبت به

---

(١) «الاتقان» ٢/١٦٧.

المصاحف أيام عثمان رضي الله عنه، وهذا ما لم يحظ به أي كتاب في تاريخ الفكر الانساني على الاطلاق [1].

تطور هذه الكتابة:

ان موضوع رسم المصحف علم قائم بذاته، وقد أُلفت فيه المؤلفات قديماً وحديثاً.

فمن المؤلفين القدامى أبو حاتم السجستاني المتوفى سنة ٢٤٨ هـ (أو ٢٥٥ هـ) الذي ألف كتاب «رسم القرآن» وأبو عمرو الداني المتوفى سنة ٤٤٤ هـ الذي ألف في هذا الفن كتاب «المقنع» [2] وأبو العباس أحمد بن محمد الازدي المراكشي المعروف بابن البنا المتوفى سنة ٧٢١ هـ الذي ألف كتاب «عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل».

ومن المؤلفين المحدثين الشيخ علي محمد الضباع الذي ألف «سمير الطالبين في رسم وضبط الكتاب المبين». والشيخ محمد خلف الحسيني الذي شرح أرجوزة المتولي، وذيل الشرح بكتاب سماه: «مرشد الحيران الى معرفة ما يجب اتباعه في رسم القرآن» [3].

هذا وقد تعرضت كتابة المصحف الى تطور تناول منها الاعجام والشكل وما الى ذلك، أما هيكل حروف الكلِمة فقد بقي على حالته الاولى.

والذي يذكره العلماء أن شخصيات مشهورة قامت بدور طيب في

---

(١) انظر رأينا في وجوب التزام كتابته تحت عنوان «كتابة المصحف والرسم العثماني» من هذا الفصل.

(٢) «كشف الظنون» ١٨٠٩/٢ و «مناهل العرفان» ٣٦٢/١ وقد نشر «المقنع» المستشرق أوتوبرتزل عام ١٩٣٢ في ألمانيا، وأعاد نشره محمد أحمد دهمان في سنة ١٣٥٩ هـ بدمشق.

(٣) «مناهل العرفان» ٣٦٢/١.

ادخال بعض التحسينات الاضافية على كتابة القرآن، وهذه الشخصيات هي:

أبو الاسود الدؤلي[١] ونصر بن عاصم[٢] أو يحيى بن يعمر[٣]، والخليل ابن أحمد[٤] وهناك اختلاف في نسبة الأولوية لبعض هؤلاء دون بعض. ويبدو أن أقرب الأقوال للصواب في تحديد دور كل منهم كالآتي:

١ ـ ذهب بعضهم الى أن أبا الاسود الدؤلي المتوفى سنة ٦٩ هـ أراد أن يعمل كتاباً في العربية يقوّم الناس به ما فسد من كلامهم، اذ كان ذلك قد فشا في الناس. فقال:

أرى أن أبتدىء بإعراب القرآن أولاً. فأحضر من يمسك المصحف، وأحضر صبغاً يخالف لون المداد وقال للذي يمسك المصحف عليه:

اذا فتحت فمي[٥] فاجعل نقطة فوق الحرف.

واذا كسرت فمي[٥] فاجعل نقطة تحت الحرف.

واذا ضممت فمي[٥] فاجعل نقطة أمام الحرف.

---

(١) هو ظالم بن عمر الدؤلي البصري أول من أسس النحو كان شاعراً من سادات التابعين توفي سنة ٦٧ أو سنة ٦٩ هـ.

(٢) هو نصر بن عاصم الليثي النحوي، كان فقيهاً من كبار التابعين توفي سنة ٨٩ هـ.

(٣) هو يحيى بن يعمر العدواني من علماء التابعين، كان فصيحاً كاتباً ولي قضاء مرو، وتوفي سنة ١٢٩ هـ.

(٤) هو الخليل بن أحمد الفراهيدي الازدي واضع علم العروض ولد في البصرة سنة ١٠٠ هـ وتوفي فيها سنة ١٧٠ هـ.

(٥) وردت هكذا: (فمي) في «الفهرست» لابن النديم ٦٦ و «نور القبس المختصر من المقتبس» لليغموري ص ٤ و «المطالع النصرية» ص ٢٠٥ ووردت هكذا: (فتحت شفتي) في «نزهة الألباء» لابن الأنباري ص ٢٠. لكن وردت هذه الكلمة في رواية الداني لهذه القصة هكذا: (فاي) وذلك في أول كتاب «النقط» المطبوع بعد «المقنع» ص ١٢٤ وكذلك وردت في «صبح الأعشى ٣/١٥٦. =

فإن أتبعت شيئاً من هذه الحركة غنة (يعني تنويناً) فاجعل نقطتين.

ففعل ذلك حتى أتى على آخر المصحف[1].

اذن فعمل أبي الاسود هو وضع علامات تشير الى الفتحة والكسرة والضمة والتنوين. وكانت هذه الاشارات تكتب بمداد يخالف المداد الذي كتب به الاصل.

٢ ـ واستمر الناس يقرؤون في مصحف عثمان وفي بعض المصاحف اشارات أبي الاسود، فلما كثر التصحيف واللحن وانتشر بالعراق فزع الحجاج بن يوسف الى كتابه، وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المتشابهة علامات، فيقال: أن نصر بن عاصم الليثي أو يحي بن يعمر قام بإعجام الحروف المتشابهة ووضع النقط افراداً وازواجاً وخالف بين أماكنها[2]. وذكر ابن حجر عن هارون بن موسى أن أول من نقط المصاحف يحي بن يعمر[3]. اذن فالعمل الثاني الذي تمّ زمن الحجاج هو تنقيط الحروف المتشابهة أزواجاً وافراداً من فوق ومن تحت.

٣ ـ وجاء الخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٧٠ هـ فكان أول من وضع

= وهذه الرواية الأخيرة مخالفة لما ذكره النحويون من أنَّ الأسماء الخمسة تُعربُ بالحروف إن لم تضف إلى ياء المتكلم.

وقد تكون رواية (فاي) على لغة القصر، وإن كانوا ذكروا أن القصر ورد في ثلاثة أسماء فقط وهي (أب وأخ وحم).

وانظر «المحكم في نقط المصاحف».

(١) ذكرنا المصادر التي أوردت هذه القصة في التعليق السابق.

(٢) «التنبيه على حدوث التصحيف» لحمزة الأصفهاني طبع دمشق صفحة ٢٧ و «وفيات الأعيان» ١/٣٤٤ و «مقدمتان في علوم القرآن» ٢٧٦ و «نقط المصحف» للداني طبع استانبول صفحة ١٣٢ و«كتاب التصحيف» لأبي أحمد العسكري و«ضحى الإسلام» ٢/٢٨٦.

(٣) «تهذيب التهذيب» ١١/٣٠٥.

الهمزة والتشديد والروم والاشمام[1].

ويقال: إن الخليل اخترع أيضاً ضبط الحروف بالحركات فاستغنى الناس عن ضبط أبي الاسود[2]، وكان العلماء يسمون ضبط الخليل شكل الشعر، وكان كثير منهم يكرهون استعماله[3].

* * *

وما زال كل ذي موهبة فنية في الخط يبذل قصارى جهده ليبدع في كتابة المصاحف. وقد قامت مهنة خاصة عرفت بكتابة المصاحف، يقوم رجالها بنسخ المصاحف لقاء أجر، وكان بعض أهل العلم يتخذها مورد عيش له.

واختلف العلماء في الحكم على هذه الزيادات والتطورات.

* فمنهم من تشدد فحظرها، فقد ذكروا عن النخعي وابن سيرين انهما كرها نقط المصاحف[2] وروي عن الشعبي وإبراهيم كراهية النقط حتى بالحمرة[4].

وكانوا يقولون: جرّدوا القرآن[5].

قال الغزالي: والظن بهؤلاء انهم كرهوا فتح هذا الباب خوفاً من أن

(١) «الاتقان» ١٧١/٢ و«تهذيب اللغة» للأزهري ٥٠/١ والروم: حركة مختلسة مختفية وهي أكثر من الاشمام لأنها تسمع، والاشمام: ضم الشفتين كمن يريد النطق بضمة إشارة إلى أن الحركة المحذوفة ضمة من غير أن يظهر لذلك أثر في النطق. (أنظر في ذلك كتب التجويد ومباحث بناء الفعل للمجهول والوقف في كتب قواعد اللغة العربية وكتب المعاجم مادة (روم) ومادة (شمم)).

(٢) «المحكم» للداني ص ٧ و «الاتقان» ١٧١/٢ وانظر ص ٢٦ من كتاب «سمير الطالبين في رسم وضبط الكتاب المبين» للشيخ علي محمد الضباع.

(٣) «المحكم» للداني.

(٤) «احياء علوم الدين» ٢٨٤/١ وانظر «المدخل» لابن الحاج ٧٤/١.

(٥) «احياء علوم الدين» ٢٨٤/١.

يؤدي الى احداث زيادات وحسماً للباب، وتشوقاً الى حراسة القرآن عما يطرق اليه تغييراً [١].

* ومنهم من منع شكل المصحف إلا إذا احتاجت الكلمة الى شكل، فقد نقل عن ابن مجاهد أنه قال: ينبغي الا يشكل الا ما يشكل [٢].

* ومنهم من أجازها بشرط أن تكتب بلون مخالف. قال الداني: لا استجيز النقط بالسواد لما فيه من التغيير لصورة الرسم، وأرى أن تكون الحركات والتنوين والتشديد والسكون والمد بالحمرة، والهمزات بالصفرة [٣].

* ومنهم من استحبها، وهو الصواب. قال النووي:

نقط المصحف وشكله مستحب لانه صيانة له من اللحن والتحريف [٣].

وقال الغزالي:

يستحب تحسين كتابة القرآن وتبيينه، ولا بأس بالنقط والعلامات بالحمرة وغيرها، فانها تزيين وتبيين، وصد عن الخطأ واللحن لمن يقرؤه.

ثم قال: واذا لم يؤد الى محظور واستقر أمر الأمة فيه على ما يحصل به مزيد معرفة فلا بأس به [١].

* ومما يندرج تحت عنوان تطور كتابة المصحف تلك الاشارات التي وضعوها عند انتهاء كل آية. وقد أخرج ابن ابي داود عن يحيى بن أبي كثير انه قال: كانوا لا يقرون شيئاً مما في هذه المصاحف الا هذه النقط الثلاث التي عند رؤوس الآي [٤].

---

(١) «احياء علوم الدين» ١/٢٨٤.

(٢) «الاتقان» ٢/١٧١.

(٣) «النقط» المنشور مع «المقنع» ص ١٢٥ ـ ١٢٦ و «الاتقان» ٢/١٧١.

(٤) «المصاحف» ١٤٣.

وكذلك فان مما استحدث في المصاحف الفواتح والخواتم والتعشير والتحزيب والتجزئة وكتابة اسماء السور وعدد الآيات والسجدات واشارات الوقوف وأرقام الآيات.

وقال الاستاذ علي محمد الضباع: (وأما النقط والشكل وما في حكمه من علامات الفواصل والسجدات والاجزاء والاحزاب وأقسامها والخموس والعشور والمواقف والفواتح والخواتم فقد اختلف العلماء فيها على ثلاثة أقوال:

١ ـ الجواز مطلقاً.

٢ ـ الكراهة مطلقاً.

٣ ـ الجواز في المصاحف التي يتعلم فيها الغلمان ومن في حكمهم دون المصاحف الامهات وقد نسب الامام الداني في «المحكم»[١] هذه الأقوال الى أربابها. والعمل في وقتنا هذا على الترخص في ذلك دفعاً للالتباس ومنعاً للتحريف والخطأ في كلام رب العالمين[٢].

* * *

كتابة المصحف والرسم العثماني:

هناك آراء ثلاثة في كتابة المصاحف:

١ ـ تحريم مخالفة مصحف عثمان في حرف، ووجوب كتابته على الكتبة الأولى.

٢ ـ جواز مخالفته.

---

(١) «المحكم» للداني تحقيق عزة حسن.

(٢) «سمير الطالبين في رسم وضبط الكتاب المبين» ص ٢٦ وانظر كتاب «الحوادث والبدع» للطرطوشي ص ٩٧ وانظر أيضاً «مقدمتان في علوم القرآن» ص ٢٧٦.

٣ ـ وجوب كتابته بالاملاء الشائع عند الناس ولا سيما للعامة والطلبة الصغار.

* أما الرأي الأول فهو الرأي الذي مال اليه الكثرة من العلماء، وليس الحق دائماً مع الكثرة، ولا شك في أن الدافع اليه الحرص على توفير السلامة لنص القرآن والمحافظة عليه من كل عوادي الزمان.

ومن القائلين بهذا الرأي الامام مالك الذي حكي عنه وجوب الكتابة على الكتبة الأولى[١].

ومنهم الامام أحمد الذي كان يقول: تحرم مخالفة خط مصحف عثمان في واو أو ألف أو ياء أو غير ذلك[٢]. وقد كتب الاستاذ علي محمد الضباع فصلاً ضافياً في كتابه «سمير الطالبين»[٣] ولم يأت بحجة شافية ولا دليل مقنع، وقد ذكر شيئاً لا دليل عليه وهو أن النبي ﷺ أملاه على الكتبة من تلقين جبريل ثم قال: «ويشهد لكونه من املائه ﷺ ما ذكره صاحب «الابريز» عن شيخه العارف بالله سيدي عبد العزيز الدباغ انه قال: رسم القرآن سر من أسرار المشاهدة وكمال الرفعة وهو صادر من النبي ﷺ وليس للصحابة ولا لغيرهم في رسم القرآن ولا شعرة واحدة، وانما هو بتوقيف من النبي ﷺ وهو الذي أمرهم أن يكتبوا على الهيئة المعروفة بزيادة الألف ونقصانها ونحو ذلك، لأسرار لا تهتدي اليها العقول إلا بفتح رباني، وهو سر من الاسرار خص الله به كتابه العزيز دون سائر

---

(١) «الحوادث والبدع» ص ٩٧ و «المقنع» ٩ ـ ١٠ و «الاتقان» ١٦٧/٢.

(٢) «الاتقان» ١٦٧/٢ و «البرهان» ٣٧٩/١ وقال أبو عمرو الداني في «المقنع» ص ٢٨: يعني الواو والألف المزيدتين في الرسم لمعنى المعدومتين في اللفظ نحو الواو في (أولوا الالباب) و (أولات) و (الربوا) ونحوه.

(٣) انظر «سمير الطالبين في رسم وضبط الكتاب المبين» ص ٢٣ ـ ٢٤ ويعتمد مؤلفه على أن الرسم كان بإجماع الصحابة. وهذه دعوى يصعب على مدعيها أن يأتي عليها بدليل. وانظر «عنوان البيان في علوم التبيان» لمحمد حسنين مخلوف ص ٦٤ ـ ٦٦.

الكتب السماوية فكما أن نظم القرآن معجز فرسمه معجز أيضاً، وهذا الكلام ليس عليه أي دليل وهو غاية في مباعدة الحق.

* أما الرأي الثاني فقد قال به جماعة من أهل العلم وحجتهم في ذلك أن رسم المصحف اصطلاحي لا توقيفي. قال أبو شامة: (.. وأما ما يرجع إلى الهجاء وتصوير الحروف فلا اعتبار بذلك في الرسم، فانه مظنة الاختلاف، وأكثره اصطلاح)[1].

ومن القائلين بهذا الرأي القاضي أبو بكر الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ هـ وابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ وسنورد قول كل منهما فيما يأتي:

قال القاضي الباقلاني: (وأما الكتابة فلم يفرض الله على الأمة فيها شيئاً اذ لم يأخذ على كتّاب القرآن وخطاطي المصاحف رسماً بعينه دون غيره أوجبه عليهم وترك ما عداه. اذ وجوب ذلك لا يدرك الا بالسمع والتوقيف، وليس في نصوص الكتاب ولا مفهومه أن رسم القرآن وضبطه لا يجوز الا على وجه مخصوص، وحد محدود، لا يجوز تجاوزه، ولا في نص السنة ما يوجب ذلك ويدل عليه، ولا في اجماع الأمة ما يوجب ذلك، ولا دلت عليه القياسات الشرعية.

بل السنَّةُ دلت على جواز رسمه بأي وجه سهل، لأن رسول الله ﷺ كان يأمر برسمه، ولم يبين لهم وجهاً معيناً، ولا نهى عن كتابته بغيره، ولذلك اختلفت خطوط المصاحف[2]، فمنهم من كان يكتب الكلمة على مخرج اللفظ، ومنهم من كان يزيد أو ينقص لعلمه ان ذلك اصطلاح،

---

(١) «المرشد الوجيز» ١٧٣ وانظر الأدلة الخمسة التي أوردها الكردي في كتابه «تاريخ القرآن وغرائب رسمه» ص ١٠١ـص ١٠٥.

(٢) قال ابن تيمية في «الفتاوى» ١٣/٤٢٠: (فإن مالكاً كان يقول عن أهل الشورى ان لكل منهم مصحفاً يخالف رسم مصحف عثمان) وانظر «المقنع» ٩٢ و«تاريخ القرآن وغرائب رسمه» لمحمد طاهر الكردي ص ٩٨.

وان الناس لا يخفى عليهم الحال، ولأجل هذا بعينه جاز أن يكتب بالحروف الكوفية والخط الاول، وأن تجعل اللام على صورة الكاف، وأن تعوج الألفات، وأن يكتب على غير هذه الوجوه، وجاز أن يكتب المصحف بالخط والهجاء القديمين، وجاز أن يكتب بالخطوط والهجاء المحدثة، وجاز أن يكتب بين ذلك.

وإذا كانت خطوط المصاحف وكثير من حروفها مختلفة متغايرة الصورة وكان الناس قد أجازوا ذلك، وأجازوا أن يكتب كل واحد منهم بما هو عادته، وما هو أسهل وأشهر وأولى من غير تأثيم ولا تناكر، علم أنه لم يؤخذ في ذلك على الناس حد محدود مخصوص، كما أخذ عليهم في القراءة والأذان.

والسبب في ذلك أن الخطوط إنما هي علامات ورسوم تجري مجرى الاشارات والعقود والرموز، فكل رسم دال على الكلمة مفيد لوجه قراءتها تجب صحته وتصويب الكتابة به على أي صورة كانت.

وبالجملة فكل من ادعى أنه يجب على الناس رسم مخصوص وجب ان يقيم الحجة على دعواه. وانى له ذلك؟)[1].

وقال ابن خلدون: (كان الخط العربي لأول الاسلام غير بالغ الى الغاية من الاحكام والاتقان والاجادة، ولا الى التوسط، لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع، وانظر ما وقع لاجل ذلك في رسمهم المصحف، حيث رسمه الصحابة بخطوطهم، وكانت غير مستحكمة في الاجادة، فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها، ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبركاً بما رسمه أصحاب رسول الله ﷺ وخير الخلق من بعده، المتلقون لوحيه من كتاب الله

(١) «الانتصار» للباقلاني وقد نقلت هذا الكلام من مقدمة «تفسير المراغي» ١/١٣ - ١٤.

وكلامه... ولا تلتفتن في ذلك الى ما يزعمه بعض المغفلين من أنهم كانوا محكمين لصناعة الخط، وان ما يتخيل من مخالفة خطوطهم لاصول الرسم ليس كما يتخيل، بل لكلها وجه. ويقولون في مثل زيادة الألف في ﴿لا اذبحنه﴾ [1] أنه تنبيه على أن الذبح لم يقع. وفي زيادة الياء في ﴿بأييد﴾ [2] أنه تنبيه على كمال القدرة الربانية.. وأمثال ذلك مما لا أصل له الا التحكم المحض.

وما حملهم على ذلك الا اعتقادهم أن في ذلك تنزيها للصحابة عن توهم النقص في قلة اجادة الخط، وحسبوا أن الخط كمال، فنزهوهم عن نقصه، ونسبوا اليهم الكمال باجادته، وطلبوا تعليل ما خالف الاجادة من رسمه. وليس ذلك بصحيح) [3].

* وأما الرأي الثالث فان أشهر القائلين به الامام العز بن عبد السلام رحمه الله المتوفى سنة ٦٦٠ هـ الذي يرى أنه لا تجوز كتابة المصحف للعامة بالرسم العثماني الاول لئلا توقع هذه الكتابة في تغيير من الجهال.

وإليك كلامه كما نقله عنه الزركشي. قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: (لا تجوز كتابة المصحف الآن على الرسوم الاولى باصطلاح الأئمة لئلا يوقع في تغيير من الجهال) [4].

ومن القائلين به من المعاصرين عدد من العلماء منهم العلامة الشيخ أحمد

---

(١) سورة النمل: ٢١.

(٢) سورة الذاريات: ٤٧.

(٣) «مقدمة ابن خلدون» ط وافي ٣/١٠٨٦ - ١٠٨٩ ط ٢، وفي طبعة بولاق ٣٩٦، وفي طبعة عبد الرحمن محمد في المطبعة البهية المصرية ٣٦٥، وفي طبعة بيروت ٤١٩ وجاء كلام ابن خلدون هذا في الفصل الثلاثين في أن الخط والكتابة من عداد الصنائع الانسانية.

(٤) «البرهان» ١/٣٧٩ و «إتحاف فضلاء البشر» ص ٩ وقد نقله أيضاً المراغي في «تفسيره» ١/١٥.

مصطفى المراغي الذي قال في مقدمة تفسيره: (وقد جرينا على الرأي الذي أوجبه العز بن عبد السلام في كتابة الآيات أثناء التفسير للعلة التي ذكرها، وهي في عصرنا أشد حاجة إليها من تلك العصور)[1].

وقد جرى الاستاذ سيد قطب ـ رحمه الله ـ على هذا الرأي فكتب الآيات في «الظلال» بالاملاء الحديث في الطبعة الأولى.

ويبدو أنه لا مانع عند أصحاب هذا الرأي من المحافظة على الرسم العثماني للخاصة باعتبار أنه من الآثار النفيسة التي ينبغي أن تبقى في أيدي العارفين.

ورأينا أن القول الأول غير صحيح، وأن أقرب هذه الأقوال للصواب هو القول الثالث ولئن قال العز بن عبد السلام: إن كتابة القرآن على الرسم العثماني توقع الجهال في زمانه في تغيير إن هذه الكتابة الآن توقع جمهور المثقفين وعامة الناس في هذا التغيير والتبديل، ذلك لأن الناس في زمانه كانوا يتلقون القرآن عن طريق المشافهة والأخذ من الاستاذ في الكتاتيب، والكتّاب مدرسة قائمة على القرآن بشكل أصيل. وقد انقرضت هذه الكتاتيب اليوم من جميع انحاء العالم الاسلامي، وزاحمتها المدارس العصرية التي تقوم على مناهج متأثرة بحضارة الغرب، وضعت في معظم بلاد المسلمين من قبل الاجانب أو تلامذتهم وعملائهم. وإذاً نظرنا الى واقع المسلمين فقلما نجد مثقفاً ممن خرّجتهم هذه المدارس ولم يتلق ثقافته من مصدر آخر قلما نجده يستطيع أن يقرأ القرآن قراءة سليمة.

ومن أجل ذلك فاننا نرى أن يكتب القرآن للتعليم بالاملاء المعاصر ويحتفظ بالكتابة العثمانية أثراً نفيساً من آثار السلف. اننا بذلك نقرب القرآن للناس، ونحول دون أن تكون هناك هوة سحيقة بين الناس وبين

---

(١) «تفسير المراغي» ١/١٥.

القرآن، وتبقى المصاحف المكتوبة على الكتبة الأولى دليلاً على الاتصال باملاء السلف، وتطبع من أجل كثير ممن تعلموا القراءة في المصحف المكتوب تلك الكتابة، ومن أجل معرفة القراءة الثابتة التي جعلوا من شروطها موافقة المصحف الامام.

أما أولئك الذين يظنون أنهم بمنعهم أي كتابة غير الكتابة الأولى يبقون على الكتابة ذاتها فهم مخطئون لأن الكتابة التي تجدها في المصاحف مشكولة منقوطة وليست كذلك الكتابة الأولى، أضف الى ذلك أن عدداً من طبعات المصاحف قد دخلها كثير أو قليل من التعديل في الاملاء.

وقد أحسن الاستاذ إبراهيم الابياري عندما قال:

(واخشى ما نخشاه نحن اليوم، أو بعد اليوم، أن يبقى القرآن برسمه القديم الذي يختلف واملاء العصر، فيخلق بلبلة على الالسن. وما نحن في كل بيئة نملك حفاظاً يضبطون الألسنة عن أن تلتوي، وإن ملكنا في كل بيئة حفاظاً فمحال أن يجد كل قارىء حافظا الى جواره.

يجب ان نخاف ما خافه السلف، وان نحتاط كما احتاط السلف. ويجب أن نفصل بين وحي الله واقلام الكتاب)[1].

* * *

نشر المصحف وطبعه في العصر الحاضر:

ما ان جاء العصر الحاضر وظهرت الطباعة حتى شرعت المطابع تطبع المصحف وتعنى به عناية كبرى، والطبعات الاولى طبعات اوربية اشرف عليها مستشرقون.

---

(١) «تاريخ القرآن» لابراهيم الابياري ص ١٣٩ وانظر في رسم القرآن كتاب «تاريخ القرآن» لمحمد طاهر الكردي ص ١٠١ وما بعدها وكتاب «القرآن المجيد» لمحمد عزة دروزة ص١٢٨ وما بعدها وكتاب «الفرقان» لابن الخطيب ص ٦٠ ـ ٩٠.

١ ـ فقد طبع للمرة الأولى في البندقية من ايطاليا سنة ٩٣٧ هـ/ ١٥٣٠ م.

٢ ـ ثم طبع في (هامبورغ) من المانيا سنة ١١٠٦ هـ/١٦٩٤ م.

٣ ـ ثم طبع في (بادوا) من ايطاليا سنة ١١١٠هـ/١٦٩٨ م.

٤ ـ والطبعة الاسلامية الأولى كانت في روسيا في مدينة (سانت بترس بورغ) سنة ١٢٠٢ هـ/١٧٨٧ م قام بها مولاي عثمان.

٥ ـ ثم طبع في ايران طبعتين حجريتين: الاولى في طهران سنة ١٢٤٤هـ/١٨٢٨ م والثانية في تبريز سنة ١٢٤٩ هـ/١٨٣٣ م.

٦ ـ ثم توالت الطبعات المختلفة في اوربا، ومن ذلك طبعة (فلوجل) للقرآن في (ليبزيغ) من المانيا سنة ١٢٥٠ هـ/١٨٣٤ م.

٧ ـ وطبع مرات في الهند والاستانة والبلاد العربية.

٨ ـ وفي سنة ١٣٣٧ هـ/١٩١٨ م. طبع المصحف طبعة جميلة مشرفة رائعة دقيقة دقة متناهية عرفت بطبعة الملك فؤاد. وقد أشرفت على طباعته لجنة مؤلفة من الاساتذة:

محمد علي خلف الحسيني المتوفى سنة ١٣٥٧ هـ/ ١٩٣٩ م شيخ المقارىء المصرية.

وحفني ناصف المتوفى سنة ١٣٣٨ هـ/١٩١٩ م المفتش الأول للغة العربية.

ومصطفى عناني المتوفى سنة ١٣٦٢ هـ/ ١٩٤٣ م المدرس بمدرسة المعلمين الناصرية.

واحمد بن علي الاسكندري المتوفى سنة ١٣٥٧ هـ/ ١٩٣٨ م المدرس بمدرسة المعلمين الناصرية.

وفي الطبعة الثانية للمصحف قام بتصحيحه ومراجعته مراجعة دقيقة على

المصحف الذي ظهر في عهد الملك فؤاد شيخ المقارىء المصرية الشيخ علي محمد الضباع مراجع المصاحف الشريفة بمشيخة المقارىء.

٩ ـ وما زالت المطابع تنشر الملايين من نسخ المصاحف، ولم تستطع طبعة أخرى أن تزاحم طبعة مصحف الملك فؤاد حتى الآن في دقتها وجودتها.

* * *

الباب الثالث

علوم القرآن

علوم القرآن هي المباحث التي تتعلق بالقرآن وجوانب منه. ويبدو أن عدداً من الائمة المتقدمين ألفوا كتباً في موضوعات تتصل بالقرآن، ذكر بعضها ابن النديم في « الفهرست »[1].

وهذه هي المرحلة الاولى في نشوء ما عرف بعلوم القرآن.

ثم جمعت هذه المباحث تحت عنوان (علوم القرآن)، ثم لم يلبث أن أصبح هذا العنوان عَلَماً على عِلْم بذاته، أرادوه أن يكون نظيراً لعلم المصطلح أو علوم الحديث.

ومن المفيد أن نذكر فيما يأتي بعض أسماء المؤلفين المتقدمين، وما ألفوا من كتب في هذا الموضوع:

فمن أقدم هؤلاء المؤلفين أولئك الذين تركوا كتباً في التفسير، من أشهرهم سعيد بن جبير المتوفى سنة ٩٥ هـ وشعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠ هـ، وابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ.

ومنهم ابو عبيدة المتوفى سنة ٢٠٩ هـ الذي ألف كتاب « غريب القرآن ».

---

(١) « الفهرست » من ص ٥٦ - ٦٤.

ومؤرج السدوسي المتوفى سنة ١٩٥ هـ الذي ألف كتاب « غريب القرآن ».

والأصمعي المتوفى سنة ٢١٤ هـ الذي ألف كتاب « لغات القرآن ».

ومحمد بن ايوب الضُرَيْس المتوفى سنة ٢٩٤ هـ الذي ألف في موضوع المكي والمدني[١].

وخلف بن هشام البزار المتوفى سنة ٢٢٩ هـ الذي ألف « كتاب القراءات ».

وابو حاتم السجستاني المتوفى سنة ٢٤٨ هـ أو ٢٥٥ هـ الذي ألف كتاب « رسم القرآن » وكتاب « النقط والشكل ».

ومحمود بن الحسن الذي ألف كتاب « متشابه القرآن ».

وأبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ هـ الذي ألف كتاب « ناسخ القرآن ومنسوخه ».

والإمام الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤ هـ الذي ألف كتاب « أحكام القرآن ».

وعلي بن المديني المتوفى سنة ٢٣٤ هـ الذي ألف كتاب « أسباب النزول ».

وابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ الذي ألف كتاب « مشكل القرآن ». الى غير ذلك من موضوعات لا يكاد يحصيها العد.

أما أول من جمع هذه العلوم في كتاب واحد فمن الصعب الجزم

---

(١) حقق هذا الكتاب مسفر سعيد دماس بإشرافي ونال به شهادة الماجستير في جامعة الملك سعود سنة ١٤٠٣ هـ.

بتحديده، ويذكر الاستاذ الزرقاني[1] أن أول من ألف في علوم القرآن هو علي بن إبراهيم بن سعيد المشهور بالحوفي المتوفى سنة ٤٣٠ هـ وقد ترك كتاب «البرهان في علوم القرآن». وهذا غلط، وقد اوقع الزرقاني في هذا الغلط الخطأ في عنوان الكتاب، فليس اسمه كما ذكره، بل اسمه كما في «كشف الظنون»[2]: «البرهان في تفسير القرآن» وهو كتاب في التفسير لا في علوم القرآن.

ثم ألف ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ كتابين في علوم القرآن هما: «فنون الافنان في علوم القرآن»[3] و«المجتبى في علوم تتعلق بالقرآن»[4].

ثم ألف أبو شامة المتوفى سنة ٦٦٥ هـ كتاب «المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز»[5].

ثم جاء الزركشي المتوفى سنة ٧٩٤ هـ وألف كتابه المشهور: «البرهان

---

(١) انظر «مناهل العرفان»: ١/٢٧ ـ ٢٨.

(٢) «كشف الظنون» ١/٢٤٢. أقول: مخطوطة الكتاب موجودة، وقد بلغني ان جامعة من الجامعات العربية تعتزم طبعه. وانظر كتاب «المدخل لدراسة القرآن» لمحمد أبو شهبة ص ٣٥.

(٣) قال صلاح المنجد في «معجم المخطوطات المطبوعة» ٣/١٧: [نشره أحمد الشرقاوي وإقبال المراكشي في الدار البيضاء سنة ١٩٧٠ م]. ولم أر هذه النشرة، ثم وقفت على طبعة سيئة جداً للكتاب نشرته مكتبة ابن سينا في القاهرة سنة ١٤٠٨ (١٩٨٨) وعلى غلاف الكتاب ما يأتي:

فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن للحافظ... ابن الجوزي ـ دراسة وتحقيق محمد إبراهيم سليم. وقد أفسد الكتاب إفساداً كبيراً، وجاء بما لم نعهده في التحقيق. وإنا لله وإنا إليه راجعون. وانظر ما ذكره العلوجي في «مؤلفات ابن الجوزي» حول هذا الكتاب ص ٤٠ وص ١٣٠.

(٤) ذكر العلوجي في ص ١٥٨ اماكن وجود مخطوطات لهذا الكتاب.

(٥) وقد حققه طيار آلتي قولاج ونشرته دار صادر في بيروت سنة ١٣٩٥ هـ (١٩٧٥ م).

في علوم القرآن »[1].

ثم جاء البلقيني المتوفى سنة ٨٤٢ وألف كتابه « مواقع العلوم من مواقع النجوم ».

وأخيراً جاء السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ وألف كتابه الجامع: « الاتقان في علوم القرآن ».

هذا وللمعاصرين كتب عدة في علوم القرآن، منها الموجز ومنها ما فوق ذلك ومنها الجيد ومنها ما دون ذلك.

وسندرس في هذا الباب موضوعات ثلاثة هي: المكي والمدني، والمحكم والمتشابه، والقراءات. ونرد القراء الراغبين في الاطلاع على العلوم الاخرى من علوم القرآن، إلى مطالعة كتب علوم القرآن المطولة.

---

(١) طبعه محمد أبو الفضل إبراهيم وصدر في أجزاء أربعة.

الفصل الأول

المكيّ والمدنيّ

استمر نزول القرآن ثلاثا وعشرين سنة. وقد وقع خلال هذه المدة حادث عظيم لعله أعظم الأحداث في حياة النبي ﷺ بعد البعثة. هذا الحادث هو الهجرة الى المدينة المنورة.

وكان هذا القرآن الكريم يتنزل في مكة على النبي ﷺ ليواجه به مجتمع الجاهلية العنيد، وليوجه القلة المستضعفة المغلوبة على أمرها ممن آمن واهتدى.

ولكنه في المدينة كان يواجه مجتمعاً قائماً على أساس الايمان والانقياد لتعاليم هذا الدين، فكان من الطبيعي أن يكون هناك اختلاف بين موضوعات كل من المرحلتين، ويتبع هذا الاختلاف في الموضوع الاختلاف في خصائص الاسلوب.

لقد نزل القرآن ليربي أمة العقيدة، التي تبقى مهمتها ما بقيت على الأرض حياة... فلا عجب إذن أن يتبين العلماء نوعين في هذا القرآن.

وإن مما يكاد يأخذ بالألباب هذه العناية التي لقيها هذا الكتاب الكريم، فلقد نقل المسلمون عن آياته: متى نزلت؟ حتى إننا لنستطيع القول: إنه ليست هناك آية إلا وقد ورد ما يدل على تاريخ نزولها. بل اننا لنجد أكثر من ذلك دلالة على العناية بالكتاب الكريم، فلقد ذكر المؤلفون في

علوم القرآن الحضري منه والسفري، والليلي منه والنهاري، والصيفي منه والشتائي، والفراشي والنومي، وما الى ذلك من علوم تجدها في كتب علوم القرآن مما يؤكد هذه العناية، التي لم يعرفها تاريخ الفكر الانساني بالنسبة الى كتاب آخر سماوي أو ارضي.

* * *

تعريف المكي والمدني:

القول الصحيح الراجح أن المكي ما نزل من القرآن قبل الهجرة، وأن المدني ما نزل بعدها.

وهناك قولان آخران في تعريفهما لا يصحان ولا يطردان وهما:

١ ـ المكي ما خوطب به أهل مكة، والمدني ما خوطب به أهل المدينة.
٢ ـ المكي ما نزل في مكة، والمدني ما نزل في المدينة.

* * *

خصائص المكي:

١ ـ نرى المكي غالبا يعالج موضوع بناء العقيدة بطريقة وجدانية وعقلية. وموضوعه الأساسي في اختصار كما يقول الاستاذ سيد قطب (حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية وحقيقة العلاقات بينهما، وتعريف الناس بربهم الحق الذي ينبغي أن يدينوا له ويعبدوه، ويتبعوا أمره وشرعه، وتنحية كل ما أدخل على العقيدة الفطرية الصحيحة من غبش ودخل وانحراف والتواء، ورد الناس الى إلههم الحق الذي يستحق الدينونة لربوبيته)[1].

---

(١) «في ظلال القرآن» ٨٩/١١ وانظر أيضاً ٧/٢٩.

٢ ـ ونرى في هذا النوع من القرآن جدالا للمشركين يبين خطأهم الواضح، والغاءهم العقل، واتباعهم العادات المألوفة، التي وجدوا عليها آباءهم، ونرى فيه هجوماً عنيفاً على الشرك والوثنية والعادات القبيحة، وزجراً وتهديداً ووعيداً للكافرين الذين يصدون عن ذكر الله ويعرضون عن آياته.

٣ ـ ونرى أن القرآن المكيَّ يكثر من عرض قصص المكذبين.

٤ ـ ونرى ان المكي يغلب على آياته القصر، وتكثر فيه كلمة (كلا) التي فيها زجر، ويكثر فيه افتتاح السور بالحروف من امثال (ق) و (حم) و (كهيعص). قال الزركشي: (وكل سورة فيها حروف المعجم فهي مكية إلا البقرة وآل عمران. وفي الرعد خلاف)[١].

وأسلوب عرضه أسلوب موجٍ عميق الايقاع، بالغ التأثير حيث تشترك في أداء هذا الغرض كل خصائص التعبير من البناء اللفظي إلى المؤثرات الموضوعية[٢].

خصائص المدني:

١ ـ نرى المدني غالبا يعالج بناء المجتمع المسلم، قال ابن القيم: (خاطبهم بقوله ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ والخطاب بذلك كله مدني، فأما الخطاب بـ ﴿يا أيها الناس﴾ فمشترك)[٣]، ويعالج بناء الاسرة المسلمة بتفصيل احكام الشريعة في نواحي الحياة المختلفة، من معاملات وزواج وطلاق وميراث، كما نرى في سورة البقرة وسورة النساء المدنيتين. وكانت هذه الاحكام معتمدة على العقيدة ومنبثقة عنها. ولا يعني هذا خلوَّ المكيِّ من أحكام

---

(١) «البرهان» ١/١٨٨.

(٢) «في ظلال القرآن» ١١/٨٩ و ج ٢٩ ص ٧.

(٣) «زاد المعاد» ٢/٥٨.

تشريعية، بل هناك أحكام ترجع إلى العبادات والمعاملات، لكن كلامنا عن الغالب[1].

٢ - ونرى في هذا النوع من القرآن فضحا للمنافقين، وكشفا لمؤامراتهم، وعرضا لتناقضاتهم وتسفيها لشعاراتهم المخادعة التي يطرحونها، كما نرى في سورة النساء وسورة المائدة وسورة المنافقين.

٣ - ونرى فيه مجادلة لاهل الكتاب، ومناقشة لآرائهم التي تعارض أحياناً حقائق التاريخ وإليك المثال الآتي: كان اليهود يدعون ان ابراهيم يهودي وكانت النصارى تدعي انه نصراني، فنزل قوله تعالى: ﴿يا أهل الكتابِ لِمَ تُحَاجُّون في إبراهيمَ وما أُنزِلَتِ التوراةُ والانجيلُ إلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أفَلا تَعْقِلُون﴾[2].

٤ - ونرى فيه ذكرا لاحكام الجهاد والحرب والسلم والهدنة مما يتصل بشؤون الدولة المسلمة وعلاقاتها الدولية كما في الأنفال والتوبة ومحمد.

٥ - ونلاحظ أن هذه الاغراض وغيرها عرضت بأسلوب يناسبها، فليس من شك في ان موضوع النص يحدد لون الاسلوب وطريقته، ولهذا فاننا نرى ان الآيات في القرآن المدني يغلب عليها الطول.

ولكن اسلوب القرآن في النوعين: المكي والمدني يبقى هو الاسلوب المعجز الذي تميز عن اساليب البشر، ويبقى هو الاسلوب الذي بلغ الذروة في الجمال والبيان والروعة.

كيف نعرف المكي من المدني؟

نرجع في ذلك الى ما ورد عن الصحابة الذين عاصروا الوحي وشهدوا

---

(١) انظر كتاب شيخنا محمد الخضر حسين «محمد رسول الله» ص ١٦٥.

(٢) سورة آل عمران: ٦٦.

مكانه، وعاشوا أسباب نزوله. جاء في صحيحي البخاري ومسلم[1] عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (والله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت؟ ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيم أنزلت؟ ولو أعلم أحدا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الابل لركبت اليه) وقد أورد السيوطي في «الاتقان» السور المدنية والسور المكية والسور التي اختلف في تحديدها العلماء، وفصل في ذلك تفصيلا جيدا. وينبغي أن نشير الى أن بعض السور كان مؤلفاً من النوعين المكي والمدني.

وقد اشارت معظم المصاحف المطبوعة الى المكي والمدني منه، اعتماداً على ما ذكره العلماء.

* * *

فوائد معرفة المكي والمدني:

١ ـ معرفة الناسخ والمنسوخ على وجه يحدد لنا الحكم الباقي الواجب اتباعه.

٢ ـ معرفة طريقة القرآن التي سلكها في تنشئة الأمة المسلمة وتربيتها والخطوات التي خطاها في اقامة الدولة الاسلامية حتى يكون في ذلك عبرة لدعاة الاصلاح، وقادة الفكر الاسلامي الذين يتطلعون الى استئناف الحياة الاسلامية من جديد.

٣ ـ التعرف على مدى الخدمة الفائقة والعناية البالغة التي حظي بها القرآن الكريم من المسلمين من عهد الصحابة حتى يومنا هذا.

---

(١) انظر باب القراء من اصحاب النبي ﷺ من «صحيح البخاري» ١٥٤/٦ وانظر باب فضائل عبدالله بن مسعود وأمه من «صحيح مسلم» ١٤٨/٧ وانظر «الكفاية» للخطيب ص ٥٦٩.

٤ ـ واخيراً فاننا نستفيد من معرفتنا للمكي والمدني من القرآن في فهم الآية وتفسيرها على وجه افضل واكمل، ولا سيما ان وقفنا مع ذلك على اسباب النزول. ومن أوضح الأمثلة على ذلك آيات الجهاد التي نزلت على مراحل[1].

* * *

(١) انظر «زاد المعاد» ط الأرناؤوط بدمشق ١٥٨/٣ و«معالم في الطريق» ط وهبة بمصر لسيد قطب: فصل الجهاد في سبيل الله ص ٧٥.

الفصل الثاني

المحكم والمتشابه

ذكر القرآنُ الكريمُ نفسُه أنَّ منه آياتٍ محكمات، وأنَّ منه آيات متشابهات، وذلك في قوله تعالى: ﴿هُوَ الذي أنزل عَلَيْكَ الكتابَ مِنْهُ آياتٌ محكماتٌ هُنَّ أمُّ الكتابِ وأُخَرُ متشابهاتٌ. فأمَّا الذين في قُلوبهم زيغٌ فيتَّبعُونَ ما تَشَابَهَ مِنْه ابتغاءَ الفتنةِ وابتغاءَ تَأْوِيلِهِ. وما يَعْلَمُ تأويلَهُ إلاَّ اللهُ. والراسخونَ في العلمِ يَقُولُونَ: آمنَّا به. كُلٌّ من عِنْدِ ربِّنا وما يذَّكَّرُ إلا أُولُو الألْباب﴾ (١)

وسنعرف المراد من (المحكم) و (المتشابه)، ولكنَّنا نودُّ قبل ذلك أنْ نشير إلى أنَّ هاتين الكلمتين وَرَدَتا بمعنى آخر في آيات أُخَر من كتاب الله. من ذلك قوله تعالى: ﴿كتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حكيمٍ خبيرٍ﴾ (٢) أي أحكمت في النظم والرصف.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديثِ كتاباً متشابهاً مثانيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جلودُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تلينُ جُلودُهم وقُلُوبُهم إلى ذكرِ اللهِ. ذلكَ هُدَى اللهِ يَهْدي بِهِ من يشاءُ. وَمَنْ يُضللِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٣).

---

(١) سورة آل عمرن: ٧.

(٢) سورة هود: ١.

(٣) سورة الزمر: ٢٣.

أيْ يشبه بعضُه بعضاً في الهداية والبلاغةِ والسلامة من التناقض والتفاوت ويصدِّق بعضُه بعضاً.

وهاتان الكلمتان: (المحكم والمتشابه) جاءتا في آيتي هود والزمر على أنهما وصف للقرآن كله، فهو كتابٌ أحكمت آياته كلها في النظم، وتشابهت آياته كلها في الحسن والبلاغة والتأثير.

بينما تدلُّ آيةُ آل عمران التي أوردنا في مطلع هذا البحث على أن بعض آيات القرآن محكم وبعضها متشابه. فما تعريفهما؟

تعريف المحكم والمتشابه

المحكم ـ لغةً ـ: اسم مفعول من أحكم؛ أي أتقن. يقال: بناءٌ محكم، أي متقنٌ لا وهن فيه ولا خلل.

والمتشابه ـ لغةً ـ اسم فاعل من تشابه أي أشبه بعضُه بعضاً.

أما من ناحية الاصطلاح فللعلماء تعريفات عدة لهما. وأحسن هذه التعريفات التعريف الآتي:

المحكم: ما عُرِف المرادُ منه إمَّا بالظهور وإمَّا بالتأويل [1].

والمتشابه: ما تعذَّر ذلك. واستأثر الله بعلمه، كقيام الساعة، والحروف المقطعة في أوائل السور [1].

قال القرطبيُّ: هذا أحسن ما قيل في المتشابه.

وقيل في تعريفهما: المحكم: ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً والمتشابه: ما احتمل أوجهاً فاشتبه منه مراد المتكلم على السامع [2].

---

(١) «تفسير القرطبي» ٤/١٠ و«الاتقان» ٢/٢ و«الكليات» ٤/٢٥٧.

(٢) «الكليات» ٤/٢٥٧ وانظر تعريفات أخرى أوردها السيوطي في «الاتقان» وانظر «الاحكام في أصول الأحكام» للآمدي طبع الرياض ١/١٦٥ سنة ١٣٨٧ هـ.

إذن فالمحكم والمتشابه نوعان موجودان في القرآن، ويتعلقان ـ كما رأيت ـ بوضوح المعنى وعدمه.

وهذا أمر طبيعي فالتفاوت في الوضوح يوجد في كل كلام، فهناك الواضح الذي لا غموض فيه ولا يحتاج إلى جهد في فهمه وتفسيره، بل معناه مفهوم يتبادر الى الذهن مباشرة، وهناك نصوص محتملة ليست في تلك الدرجة من الوضوح، ولا يقوى الناس جميعاً على فهمها وإدراك مغزاها.

والآية المتقدمة تشير إلى أنَّ الذين يريدون الحق لا يذهبون الى تلك النصوص المتشابهة ويحمّلونها ما لا تحمل، ولا يستغلون غموضها لتأويلها. بما يتناسب واغراضهم، فذلك فعل الذين في قلوبهم زيغ، وأما المؤمنون العلماء فانهم يلتزمون الواضح فيعملون به ويؤمنون بالمتشابه انه من عند الله، ويدعون محاولة التعسف في فهمه وتأويله.

* * *

هل المتشابه مما يمكن معرفته؟

اختلف العلماء في ذلك على قولين:

الأول: انه يمكن الاطلاع على علم المتشابه للراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله، واختار هذا القول الامام النووي فقال في «شرح مسلم»:

إنه الاصح، لانه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لاحد من الخلق إلى معرفته.

الثاني: أنه لا يمكن لأحد الاطلاع على علمه ولا يعلمه الا الله، وأما الراسخون في العلم فانهم يقولون: آمنا به كل من عند ربنا.

وأيد السيوطي هذا القول بأنه قول اكثر الصحابة والتابعين.

وهذا الرأي الذي نرجحه، وهو الصواب إن شاء الله تعالى.

وقد اختصَّ الله بمعرفته كما قال عزَّ من قائل: ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله. وما يعلم تأويله إلا الله. والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب﴾.

وهذا القول يقتضي الوقوف على قوله ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ ثم تأتي واو الاستئناف ويبدأ كلام جديد هو: ﴿والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾. ومما يدل على ذلك ما ذكر ابن قدامة في «روضة الناظر» حيث قال:

[...لأنَّ في الآية قرائن تدلُّ على أنَّ الله سبحانه متفرّد بعلم المتشابه، وأن الوقوف الصحيح عند قوله تعالى ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ لفظاً ومعنىً:

أما اللفظ فلأنه لو أراد عطف (الراسخين) لقال: (ويقولون آمنا به) بالواو.

وأما المعنى فلأنه ذمَّ مبتغي التأويل، ولو كان ذلك للراسخين معلوماً لكان مبتغيه ممدوحاً لا مذمُوماً.

ولأنَّ قولهم ﴿آمنا به﴾ يدل على نوع تفويض وتسليم لشيءٍ لم يقفوا على معناه، سيما إذا أتبعوهُ بقولهم ﴿كل من عند ربنا﴾ فذكرُهم ربَّهم ها هنا يعطي الثقة به والتسليم لأمره، وأنَّه صدر من عنده كما جاء من عنده المحكم.

ولأنَّ لفظة (أمَّا) لتفصيل المجمل. فذكره لها في الذين في قلوبهم زيغ مع وصفه إيَّاهم باتباع المتشابه وابتغاء تأويله يدلُّ على قسم آخر يخالفهم في هذه الصفة وهم الراسخون.

ولو كانوا يعلمون تأويله لم يخالفوا القسم الأول في ابتغاء التأويل وإذ قد ثبت أنَّه غير معلوم التأويل لأحد فلا يجوز حمله على غير ما ذكرنا][1].

ومّما يؤيد أنَّ الواو استئنافية لا عاطفة دلالة الاستقراء في القرآن ذلك أنه تعالى إذا نفى عن الخلق شيئاً وأثبته لنفسه فقد دلّ الاستقراء ـ كما يقول الأستاذ الشنقيطي في «أضواء البيان» ـ [أنه لا يكون له في ذلك الاثبات شريك كقوله تعالى ﴿قل لا يعلم مَنْ في السموات والأرض الغيب إلا الله﴾[2].

وقوله ﴿لا يجليها لوقتها إلا هو﴾[3].

وقوله ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾[4].

فالمطابق لذلك أن يكون قوله ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ معناه أنه لا يعلمه إلاّ هو وحده كما قاله الخطابي وقال: لو كانت الواو في قوله ﴿والراسخون﴾ للنسق ـ أي للعطف ـ لم يكن لقوله ﴿كل من عند ربنا﴾ فائدة.

والقول بأنَّ الوقف تام على قوله ﴿إلا الله﴾ وأن قوله ﴿والراسخون في العلم﴾ ابتداء كلام هو قول جمهور العلماء للأدلة القرآنية التي ذكرنا. وممن قال بذلك عمر وابن عبّاس وعائشة وعروة بن الزبير وعمر بن عبد العزيز وابن مسعود وأبي بن كعب وغيرهم كثير][5].

أنواع المحكم:

المحكم درجات في وضوحه، ومن أجل ذلك يتفاوت الناس في

---

(١) روضة الناظر ١/١٨٦ ـ ١٨٩ طبع مكتبة المعارف بالرياض سنة ١٤٠٤ هـ (١٩٨٤).
(٢) سورة النمل: ٦٥.
(٣) سورة الأعراف: ١٨٧.
(٤) سورة القصص: ٨٨.
(٥) «أضواء البيان» ٢/٢٣٦.

استيعابه كله وفهمه والإحاطة بمعانيه ومدلولاته.

فهناك آيات واضحات جداً يستطيع أن يفهمها الناس العاديون الذين عرفوا اللغة العربية ووعوها.

* وهناك آيات لا يفهمها إلاّ العلماء الواقفون على أسرار العربية القادرون على الإفادة من قواعد الاستنباط وأصول الفقه وقواعد البلاغة والذين أوتوا موهبة التذوّق للكلام الجميل، وهذا التفاوت في الوضوح أمرٌ مشاهد معروف حتى في كلام البشر، فهذه مواد القوانين لا يستوي الخاصّة من القضاة في فهمها، وهذه القصائد الشعرية، والنصوص النثرية متفاوتة في وضوحها وفيها نصوص لا يفهمها ولا يتذوقها إلا من أوتي حظاً حسناً من الثروة اللغوية والحسّ الجمالي.

وإدخال الآيات التي من هذا القبيل في المتشابه غلط دون شك.

أنواع المتشابه:

المتشابه أنواع بحسب موضوعه، وذلك كالحروف المقطعة ومعرفة وقت الساعة[1]، ومعرفة حقيقة ما تدل عليه الأسماء والصفات وما إلى ذلك. وكل ذلك مما لا يعلم تأويله إلا الله تبارك وتعالى. وهو درجات فبعضها أشدُّ تشابهاً من بعض. هذا ما نراه في أنواع المتشابه. أما العلماء الذين يقولون: إنَّ المتشابه يمكن أن يعرف فقد ذكروا أنواعاً عدة له، ومعظمها من المحكم الذي لا يعرفه إلا العلماء المتذوقون مما سبق ذكره آنفاً. وتوسعوا في ذلك توسعاً كبيراً حتى جعلوا الكلمة الغريبة التي يكشف عن معناها في كتب غريب القرآن أو معجمات اللغة جعلوها من المتشابه.

وقسموا المتشابه تقسيمات متعددة، وسُنِلِمُّ بهذه التقسيمات إلماماً سريعاً، وإن كُنَّا لا نسلِّمُ بصحتها كلها.

---

(١) أنظر مقدمة الطبري لتفسيره ١/٧٤ تحقيق محمود شاكر.

التقسيم الأول:

ذكروا أنَّ المتشابه ثلاثة أنواع:

١ ـ متشابه من جهة اللفظ: وهو الذي أصابه الغموض بسبب اللفظ وهو نوعان:

أ ـ نوع يرجع إلى الألفاظ المفردة: وذكروا له ضربين:

ضرباً يرجع إلى الغرابة مثل (الأب) في قوله تعالى: ﴿وفاكهة وأبا﴾[١].

وضرباً يرجع إلى الاشتراك[٢].

ب ـ نوع يرجع إلى جملة الكلام المركب: وذكروا لذلك ثلاثة أضرب:

ضرب ينشأ عن اختصار الكلام.

وضرب ينشأ عن بسط الكلام.

وضرب ينشأ بسبب نظم الكلام.

وذكروا لكل من هذه الأنواع أمثلة تقنع المرء بأن الذي ذهبوا إليه في تفسير المتشابه غير صحيح.

٢ ـ ومتشابه من جهة المعنى: وهو الذي أصابه الغموض بسبب المعنى نفسه. وذكر الراغب في «مفرداته» أنّ منه أوصاف الله تعالى وأوصاف القيامة؛ إذ هو سبحانه ليس كمثله شيء، وأحوال القيامة ممَّا لا نستطيع تصورها، لأن فيها مالاعينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وقد ذهب ابن تيمية رحمه الله إلى أن اعتبار آيات الصفات من المتشابه

---

(١) سورة عبس: ٣١.

(٢) أنظر في الاشتراك «المزهر» ٣٦٩/١ و«فقه اللغة» لمحمد المبارك ١٩٨ وكتب فقه اللغة الأخرى.

غلط، وردَّ على القائلين بذلك ردّاً مفصلاً[1]، وإن كان قد قرَّرَ أنَّ حقيقة ما تدلُّ عليه الآياتُ من حقائق الأسماء والصفات من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله، قال: (وأما حقيقة ما دلَّ عليه ذلك من حقائق الأسماء والصفات فهذا من تأويل المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله)[2].

٣ ـ ومتشابه من جهتها ـ أي من جهة اللفظ والمعنى ـ وذكروا له خمسة أنواع[3].

التقسيم الثاني:

وذكروا للمتشابه تقسيماً آخر من حيث إمكانية معرفته فقالوا: إنه ينقسم إلى ثلاثة أقسام[4]:

١ ـ قسم لا سبيل إلى الوقوف عليه كوقت الساعة وخروج الدابة.

٢ ـ وقسم للانسان سبيل إلى معرفته كالألفاظ الغريبة.

٣ ـ وقسم متردد بين الأمرين، يختصُّ بمعرفته بعض الراسخين في العلم ويخفى على من دونهم.

قلت: والمتشابه من هـذه الأضرب هـو الأول. أما الألفاظ الغريبة والضرب الذي يستطيع إدراكه الراسخون في العلم فهو من المحكم، لأنَّ المحكم ـ كما ذكرنا آنفاً ـ يتفاوت وضوحاً وسهولة، فمنه ما يحتاج إلى مزيد نظر وتأمل ليقف المرء على معناه وحقيقته.

المنحرفون والمتشابه:

المؤمنون يتبعون المحكم ويؤمنون بالمتشابه ويقولون: آمنا به كل من

---

(١) «الفتاوي» ١٣/٢٩٤.

(٢) «الفتاوى» ٣/٦٥.

(٣) أنظرها في «المفردات» ٢٦١ و «الاتقان» ٢/٥

(٤) وانظر «المفردات» و «الاتقان» و «الكليات» ٤/٢٥٩.

عند ربنا، والذين في قلوبهم زيغ يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة.

هذه حقيقة قررتها الآية الكريمة، وجاء التاريخ تطبيقاً واقعياً لمضمونها، فما من فرقة ضالة أرادت كسب الأنصار إلى آرائها إلا ولجأت إلى المتشابه تؤوله على الوجه الذي يروق لها ويتفق مع أصولها ومبادئها...

وفي ذلك تشويه لصورة هذا الدين ونيل منه وإخراج للآيات عن حقيقتها.

ويبدو أنَّ هذا مسلك طبيعي للمنحرفين، ذلك لأن المحكم من آيات القرآن الواضح الدلالة لا مجال فيه للدس والافتراء والتحريف... أما الكلام الذي يكون غير واضح المعنى ففيه المجال الرحب أمام تلك الفرق المنحرفة لتقول: إن المراد بهذه الآية هو كذا وكذا. وتأتي بضلالاتها وتقررها.

وإذا كان المنحرفون قد أقدموا على تفسير المحكم تفسيراً باطلاً فإنهم في المتشابه أشدُّ إفساداً وتحريفاً.

ذكر ابن الجوزي نقلاً عن غلاة الشيعة الذين يعتقدون بعقيدة التناسخ الباطلة وينكرون القيامة، فنقل عنهم قولهم: (وأما النفوس المنكوسة المغموسة في عالم الطبيعة المعرضة عن طلب رشدها من الأئمة المعصومين فإنها أبداً في النار، على معنى أنها تتناسخ في الأبدان الجسمانية وكلما فارقت جسداً تلقاها آخر واستدلوا بقوله تعالى: ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها﴾[1])[2].

ونقل ابن الجوزي عنهم أنهم يفسرون الصيام بالامساك عن كشف السر، ويفسرون البعث يوم القيامة بالاهتداء إلى مذاهبهم[3]. وهذا كله

---

(١) النساء: ٥٦.

(٢) القرامطة لابن الجوزي بتحقيقنا ص ٦١.

(٣) القرامطة لابن الجوزي بتحقيقنا ص ٦٤.

باطل من القول وتعطيل للنصوص، وتضييع للواجبات. إذا كان صنيعهم بالنصوص المحكمة هكذا فماذا يكون موقفهم من المتشابة؟.

إنهم دون شك سيجدون فيه بغيتهم، فيذهبون في تحريف النص وتأويله المذاهب التي تنصر باطلهم.

وسأضرب مثلاً واحداً على اتباع المتشابه من قبل بعض الفرق الزائغة وهذا المثل هو الحروف المقطعة التي تأتي في أوائل بعض السور.

والموقف السليم في تفسيرها أنَّ الله أعلم بمراده.

ولكنَّ الناس المنحرفين وقفوا منها مواقف غريبة أذكر منها موقفين منكرين:

* فقد ذهب فريق منهم يفسرون هذه الحروف على أنها رموز لكلمات يستدلون منها على أحقية سيدنا علي بالخلافة... بل استدل بها بعضهم على أن علياً كان أحقَّ بالرسالة من محمد ﷺ كما ذكر ذلك السيد محمد رشيد رضا[1]، وهذا باطل دون شك.

* وذهب فريق ثان يفسرون هذه الحروف بحساب الجمل ويستنتجون من ذلك وقت قيام الساعة، ويهذون بهذيانات باطلة[2].

وهكذا فإن الاتجاه إلى تأويل المتشابه على النحو المذكور ليس له دليل من عقل ولا نقل، وهو وسيلة من وسائل نشر الزيغ والانحراف.

* * *

(١) أنظر كتابه «الوحدة الاسلامية» من ص ٢٦ حتى ٢٩ طبع المكتب الاسلامي.
(٢) وانظر «تفسير البيضاوي» ١/٤٤ و«البحر المحيط» ١/٣٤ و«الدر المنثور» ١/٢٣ و٢/٥. و(الجمل) على وزن (سكر) وانظر «تاج العروس» ٧/٢٦٤.

فوائد المتشابه:

قد يرد سؤال هو: ما الحكمة في إنزال المتشابه ووجوده في الكتاب العزيز؟ والجواب على ذلك أن فوائد المتشابه تختلف بالنسبة إلى ما يمكن علمه وإلى ما لا يمكن علمه[1].

أولاً: فوائد المتشابه الذي يمكن علمه عديدة نذكر منها أربعاً هي:

١ ـ حث العلماء على النظر الموجب للعلم بغوامضه والبحث عن دقائقه.

٢ ـ ظهور التفاضل وتفاوت الدرجات إذ لو كان القرآن كله محكماً لا يحتاج الى تأويل لاستوت منازل الخلق ولم يظهر فضل العالم على غيره.

٣ ـ الحصول على الثواب الأكبر، ذلك لأن المتشابه يوجب مزيد المشقة في الوصول الى المراد، وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب.

٤ ـ تحصيل العلوم الكثيرة، ذلك لأن المتشابه يوجب فهمه التعمق في معرفة النحو والمعاني وغيرهما والوقوف على أساليب العرب والعلوم الأخرى.

هذا على رأي الذين يسمون هذا النوع من الكلام متشابهاً وقد ذكرنا رأينا في ذلك واضحاً.

ثانياً: فوائد المتشابه الذي لا يمكن علمه عديدة نذكر منها أربعاً وهي:

١ ـ ابتلاء العباد بالوقوف عنده، والتوقف فيه، والتفويض والتسليم، والتعبد بالاشتغال به من جهة التلاوة كالمنسوخ وان لم يجز العمل بما فيه.

وفي ذلك اختبار إيمان المؤمن الذي يستسلم لكل ما جاءه عن الله فهو يؤمن بما جاء من عند الله، فهمه أم لم يفهمه، ويردد عند قراءته: آمنا به كل من عند ربنا.

---

(١) أنظر «البرهان» للزركشي ٢/٧٥.

٢ ـ ومن حكم وجود المتشابه الذي استأثر الله بعلمه في القرآن استكمال جوانب التأثير في العقيدة، وذلك لتتوافر للعقيدة الصفة المهمة التي تجعلها عقيدة تملأ النفس، وتحوز الإعجاب. قال الأستاذ سيد قطب رحمه الله: [إنَّ العقيدة التي لا غيب فيها ولا مجهول، ولا حقيقة أكبر من الإدراك البشري المحدود ليست عقيدة، ولا تجد فيها النفس ما يلبي فطرتها وأشواقها الخفية إلى المجهول المستتر وراء الحجب المسدلة] [1].

وهذا أمر مشاهد يدركه الواعون المتتبعون لأحوال الناس الشباب خاصة في ديار الغرب، الذين يندفع عدد منهم إلى تبني عدد من الأفكار التي تدعو إلى أمور غيبية بعيدة عن دنيا الواقع.

إنها فطرة الله.. من أجل ذلك كان المتشابه في القرآن يؤدي دوراً ضخماً في ملء هذا الجانب في النفس الإنسانية.

٣ ـ إقامة الحجة على الناس جميعاً بهذا الكتاب، الذي جاء بكل ما يتطلع الناس إليه أفراداً وجماعات، سواء كان في العقيدة التي تنأى عن الخرافة والباطل، وتدعو إلى الإيمان بحقائق يدرك الناسُ بعضها ويعجز العقل البشري عن إدراك بعضها، أو كان في التشريع المتكامل أو في الحياة الروحية السامية التي أقامها بين الناس.

٤ ـ وذكر العلماء أيضاً أنَّ من حكم المتشابه إقامة الحجة على العرب البلغاء الأبيناء حيث نزل القرآن بلغتهم، ومع ذلك فقد عجزوا عن الوقوف على معنى بعض الآيات، فدل ذلك على أنه منزل من عند الله تبارك وتعالى.

* * *

هذا ومبحث المحكم والمتشابه من المباحث التي كثر الكلام فيها

---

(١) خصائص التصور الاسلامي ص ١١٤ (في أول كلامه عن التوازن).

والتأليف وقد يجعل بعضهم المحكم قسماً للمنسوخ. ونحسب أن ما ذكرنا في هذا الفصل يمكن أن يُعدَّ من معالم هذا المبحث الواسع، وللقارىء الراغب في التوسع ان يرجع إلى المراجع التي ذكرت في حواشي هذا البحث[1].

---

(١) أنظر في المحكم والمتشابه كتب أصول الفقه ونذكر منها:
«الموافقات» ٥٦/٣ و«المستصفى» و«البرهان» للجويني ٤٢٢/١ و«الاحكام» للآمدي ١٦٥/١ و«إرشاد الفحول» ٣١ و«أصول الفقه» لخلاف و«اصول الفقه» للخضري ١٤١ ـ ١٥٦ و«أصول الفقه» لمحمد أبي زهرة وكتب التفسير، ونذكر منها:
«تفسير الطبري» ١٦٩/٦ و«تفسير القرطبي» ٩/٤ و«فتح القدير» للشوكاني و«تفسير القاسمي» و«أضواء البيان» ٢٣٣/١ و«تفسير المنار» ١٦٣/٣ ـ ٢٣٠ و«تفسير سورة الاخلاص» لابن تيمية، والكتب المؤلفة في هذا الموضوع، ونذكر منها «الاكليل في المتشابه والتأويل» لابن تيمية.

الفصل الثالث

القراءات

تعريفها:

القراءات: جمع قراءة، وهي في اللغة مصدر قرأ.

وفي الاصطلاح: علم بكيفية أداء كلمات القرآن من تخفيف وتشديد وغيرهما، واختلاف ألفاظ الوحي في الحروف.

وقال الزركشي في «البرهان»:

القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان، فالقرآن هو الوحي المنزل على محمد ﷺ للبيان والاعجاز، والقراءات هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في الحروف وكيفيتها من تخفيف وتشديد وغيرهما[1].

ولا بد فيها من التلقي والمشافهة، لأن في القراءات أشياء لا تحكم إلا بالسماع والمشافهة.

شروط القراءة الصحيحة:

اشترط القراء شروطاً ثلاثة لصحة القراءة واعتبارها، وهي:

١ ـ موافقتها لرسم المصحف الامام[2].

---

(١) «البرهان» ١/٣١٨ وانظر «الاتقان» ١/٨٠.

(٢) أنظر النقول التي ساقها السيوطي في اشتراط موافقة مصحف من مصاحف عثمان. في الاتقان» ١/٧٥.

٢ ـ نقلها بالتواتر: هذا مذهب الاصوليين وفقهاء المذاهب الأربعة والمحدثين، وبناء على ذلك فلا تثبت القراءة بالسند الصحيح غير المتواتر ولو وافقت رسم المصحف ووافقت وجهاً من وجوه العربية[١].

٣ ـ موافقتها لوجه من وجوه العربية.

ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها شاذة، وقد يطلقون عليها ضعيفة أو باطلة. قال ابن الجزري في أول كتابه «النشر» بعد أن ذكر هذه الشروط: «ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة اطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة سواء كانت عن السبعة أم عمن هو أكبر منهم. وهذا هو الصحيح عند ائمة التحقيق من السلف والخلف»[٢].

وقال الكواشي: (ومتى فقد شرط من الثلاثة فهو من الشاذ)[٣].

أما إذا توافرت هذه الأركان فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ولا يحل إنكارها، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، ووجب على الناس قبولها سواء أكانت عن الائمة السبعة أم عن غيرهم من الائمة المشهورين[٤]

القراءات وحي:

والقراءات وحي تلقاه الرسول ﷺ من جبريل، وقرأه الرسول على

---

(١) انظر «غيث النفع» للصفاقسي ص ١٧ المطبوع مع «شرح الشاطبية» لابن القاصح المسمى «سراج القارىء المبتدي وتذكار المقرىء المنتهي» وانظر «النشر» لابن الجزري وانظر تعليق سعيد الافغاني حول هذه النقطة في كتابه «اصول النحو» ص ٥٩ وانظر «البرهان» ١/٣١٩ و «الاتقان» ١/٧٦ و ٨٠.

(٢) «النشر» لابن الجزري.

(٣) «الاتقان» ١/٨١.

(٤) انظر «النشر» لابن الجزري ١/٩.

الصحابة، ونقلت عنه بالتواتر كما ذكرنا آنفاً.

فقد ثبت في الصحاح عن عائشة وابن عباس أن جبريل كان يعارض النبي ﷺ بالقرآن في كل عام مرة، فلما كان العام الذي قبض فيه عارضه مرتين[1]:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان أزواج النبي ﷺ عنده، فأقبلت فاطمة تمشي، ما تخطىء مشيتها من مشية رسول الله شيئاً، فلما رآها رحب بها وقال: «مرحبا بابنتي» ثم أجلسها عن يمينه ـ أو عن شماله ـ وسارّها، فبكت بكاء شديداً، فلما رأى جزعها سارّها الثانية فضحكت. فقلت لها: خصك رسول الله ﷺ من بين نسائه بالسرار ثم أنت تبكين؟

فلما قام رسول الله ﷺ سألتها: ما قال لك رسول الله ﷺ؟ قالت: ما كنت أفشي على رسول الله ﷺ سرّه. فلما توفي رسول الله ﷺ قالت: عزمت عليك بما لي عليك من الحق لما حدثتني ما قال لك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

فقالت: أما الآن فنعم، أما حين سارني في المرة الأولى، فأخبرني أن جبريل كان يعارضه القرآن في كل سنة مرة، وأنه عارضه الآن مرتين «وإني لا أرى الأجل إلا قد اقترب فاتقي الله واصبري، فإنه نعم السلف أنا لك» فبكيت بكائي الذي رأيت، فلما رأى جزعي سارني الثانية فقال: «يا فاطمة أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين؟ أو سيدة نساء هذه الأمة؟» فضحكت ضحكي الذي رأيت[2].

---

(١) انظر «فتاوى ابن تيمية» ١٣/٣٩٥ و «النشر» ١/٣٢.

(٢) متفق عليه، وهذا لفظ مسلم. وانظره في «صحيح مسلم» ٧/١٤٢ وفي «صحيح البخاري» ٤/١٦٣. وانظره في «رياض الصالحين» باب حفظ السر ص ٣٠٣، وانظر الحديث من رواية أبي هريرة أيضاً فيه «مسند أحمد» ٢/٣٣٦ و ٣٥٥ و «ابن ماجه» ١/٥٦٢ و «الدارمي» ٢/٢٧.

وكانت هذه العرضة الأخيرة تتضمن طرقاً مختلفة لاداء بعض الكلمات، كما كانت تتضمن اختلافات بعض ألفاظ الوحي.

ومن المعلوم أن الصحابة قد اختلف أخذهم عن رسول الله ﷺ، فمنهم من أخذ عنه طريقة ما، ومنهم من أخذ طريقة أخرى، ثم تفرقوا في البلاد وهم على هذا الحال، فاختلف بسبب ذلك أخذ التابعين عنهم، وأخذ تابعي التابعين عن التابعين وهلم جراً.. حتى وصل الأمر على هذا النحو إلى الأئمة القراء الذين سجلوا هذه القراءات.. وكانت القراءات المختلفة.

* * *

حديث الأحرف السبعة:

لمس المسلمون أثر هذا الاختلاف في القراءة الذي أشرنا اليه في عهد النبوة، كما في حديث عمر وهشام الآتي، وهو حديث الاحرف السبعة.

وقد التبس أمر هذا الحديث على كثير من الناس، حيث ظن بعضهم ان المراد بالأحرف السبعة القراءات السبع، وهو وهم أشار اليه الامام الحافظ أبو شامة بقوله:

(ظن قوم أن القراءات السبع الموجودة الآن هي التي أريدت في الحديث، وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة، وإنما يظن ذلك بعض أهل الجهل)[1].

وقال ابن عمار أيضاً:

(لقد فعل مسبّع هذه السبعة ما لا ينبغي له، وأشكل الأمر على العامة بإيهامه كل من قل نظره أن هذه القراءات هي المذكورة في الخبر، وليته اذ

---

(١) ذكر ذلك ابن حجر في «فتح الباري» ٩/٣٠ وانظر «تفسير الطبري» ١/٦٥ وتعليق محمود محمد شاكر.

اقتصر نقص على السبعة أو زاد ليزيل الشبهة)[1].

وقد ذهب بعض أهل العلم الى أن حديث الأحرف السبعة تواتر عن النبي ﷺ، وألف فيه كثير من العلماء رسائل خاصة[2]. وممن ألف في الحديث المذكور الامام الحافظ أبو شامة المتوفى سنة ٦٦٥ هـ وابن الجزري المتوفى سنة ٨٣٣ هـ الذي ألف فيه جزءاً تتبع رواياته ليدل على أنه متواتر.

ونصُّ الحديث كما أخرجه البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب قال: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرؤها على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ فكدت أساوره[3] في الصلاة، فانتظرته حتى سلم، ثم لببته بردائه[4] فقلت: من أقرأك هذه السورة؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ.

قلت له: كذبت، فوالله ان رسول الله ﷺ أقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرؤها. فانطلقت أقوده إلى رسول الله ﷺ. فقلت: يا رسول الله إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، وأنت أقرأتني سورة الفرقان.

فقال رسول الله ﷺ: «أرسله يا عمر. اقرأ يا هشام».

فقرأ هذه القراءة التي سمعته يقرؤها، قال رسول الله ﷺ: «هكذا أنزلت» ثم قال رسول الله ﷺ: «ان هذا القرآن انزل على سبعة أحرف. فاقرؤوا ما تيسر منه» واللفظ للبخاري[5].

---

(١) انظر «فتح الباري» ٩/٣٠.

(٢) انظر «غيث النفع» للصفاقسي ص ٤.

(٣) أي أعاجله وأواثبه.

(٤) أي جمعت الرداء في موضع لبته أي عنقه وامسكته به وجذبته به.

(٥) انظر «صحيح البخاري» ٦/١٥٢ و«صحيح مسلم» ٢/٢٠٢ وأخرجه معهما الترمذي

وأخرج مسلم[1] عن أبي بن كعب أن النبي ﷺ كان عند أضاة[2] بني غفار فأتاه جبريل عليه السلام فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف.

فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك.

ثم أتاه الثانية فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين.

فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك.

ثم جاءه الثالثة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ امتك القرآن على ثلاثة أحرف.

فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك.

ثم جاء الرابعة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف، فأيما حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا».

ومن الجدير بالذكر التنبيه الى أن السبعة هنا يراد بها مدلولها الرقمي، ولولا التدرج الوارد في هذا الحديث لما كان هناك مانع من أن يكون قد أريد بها التعدد، لأن من عادة العرب أن تستعمل السبعة لتدل على التعدد في الآحاد، والسبعين في العشرات، والسبعمائة في المئات[3].

٦٢/٤ وأبو داود ١٠١/٢ والنسائي ١١٥/٢ ومالك في «الموطأ». ٢٠١/١ وانظر الحديث في «جامع الأصول» لابن الاثير ٣١/٣ و«تفسير ابن جرير» طبعة دار المعارف تحقيق محمود شاكر ٢٤/١ ورقم الحديث ٢٥. ورواه الشافعي في «الرسالة» فقرة رقم ٧٥٢.

(١) انظر «صحيح مسلم» ٢٠٣/٢ وأخرجه أيضاً أبو داود ١٠٢/٢ وأحمد ١٢٨/٥ والترمذي ٦١/٤ والنسائي ١٥٢/٢ وانظره في «جامع الأصول» ٣٥/٣.

(٢) الاضاة: الماء المستنقع كالغدير جمعها أضا مثل حصاة حصى، وجاء في «معجم البلدان»؛ هو موضعٌ قريب من مكة.

(٣) انظر «النشر» لابن الجزري ٢٦/١.

وقد أجمع العلماء[1] المعتد بهم على أن حديث الأحرف السبعة ليس المراد به القراءات السبع المشهورة. قال ابن الجزري في «النشر»:

(وانما أطلنا في هذا الفصل لما بلغنا عن بعض من لا علم له أن القراءات الصحيحة هي التي عند هؤلاء السبعة، وأن الأحرف السبعة التي أشار اليها النبي ﷺ هي قراءة هؤلاء السبعة. بل غلب على كثير من الجهال أن القراءات الصحيحة هي التي في «الشاطبية» و «التيسير»)[2] ويريد بالجملة الأخيرة أن القراءات الصحيحة أكثر من التي توجد في هذين الكتابين.

وقد نقلنا قول الامام أبي شامة في ذلك قبل قليل.

وليس المراد بالحديث أن كل كلمة تقرأ على سبعة أوجه:

واختلفوا في المراد به على أقوال متعددة، وقد أورد السيوطي خمسة وثلاثين قولا ذكرها في «الاتقان»[3] وقال: إنها أربعون. ونقل الأستاذ الزرقاني أن هذه الأقوال تصل الى أربعين، وفصل القول في أحد عشر قولا، وأورد بايجاز تسعة أقوال أخرى[4].

وقال ابن حجر في «فتح الباري»: «وذكر القرطبي عن ابن حبان انه بلغ الاختلاف في معنى الأحرف السبعة الى خمسة وثلاثين قولا ولم يذكر القرطبي منها سوى خمسة وقال المنذري: أكثرها غير مختار. ولم أقف على كلام ابن حبان في هذا بعد تتبعي مظانه من «صحيحه»)[5].

---

(١) نص على هذا الاجماع ابن تيمية في «الفتاوى» ١٣/٣٩٠ وابن الجزري في «النشر» ١/٢٤.

(٢) «النشر» ١/٣٦.

(٣) «الاتقان» ١/٤٥ النوع السادس عشر وانظر «شرح السنة» ٤/٥٠٦ ـ ٥١٢.

(٤) «مناهل العرفان» ١/١٤٨ ـ ١٧٧.

(٥) «فتح الباري» ٩/٢٣.

ولن نستطيع استقصاء هذه الأقوال كلها هنا، ولكننا سنورد القول الذي نرجحه، ويمكن لمن يريد التوسع في ذلك أن يرجع إلى المراجع المذكورة في حواشي البحث.

وهذا الرأي الذي سنورده منسوب الى الجمهور من أهل الفقه والحديث[1].

وقد ذهب اليه ابن جرير وغيره فقالوا: ان القراءة على الأحرف السبعة يراد بها سبع لغات، أي سبع لغات من لغات العرب المشهورة في كلمة واحدة ومعنى واحد، أي أوجه من الألفاظ المختلفة في كلمة واحدة ومعنى واحد.

نحو (هلم، وأقبل، وتعال، وعجل، وأسرع، وقصدي، ونحوي) فهذه ألفاظ سبعة معناها واحد وهو طلب الاقبال.

وقد حكى هذا القول ابن تيمية فقال:

(يقول ابن جرير وغيره: ان القراءة على الأحرف السبعة لم تكن واجبة على الأمة، وانما كان جائزاً لهم، مرخصاً لهم فيه، وقد جعل اليهم الاختيار في أي حرف اختاروه)[2].

ثم قال: (ومن هؤلاء من يقول: إن الترخيص في الأحرف السبعة كان في أول الاسلام لما في المحافظة على حرف واحد من المشقة عليهم، فلما تذللت ألسنتهم بالقراءة، وكان اتفاقهم على حرف واحد يسيراً عليهم وهو أرفق بهم، جمعوا على الحرف الذي كان في العرضة الأخيرة ويقولون: إنه نسخ ما سوى ذلك)[3].

---

(١) «مناهل العرفان» ١/١٦٧.

(٢) «فتاوى ابن تيمية» ١٣/٣٩٦.

(٣) «فتاوي ابن تيمية» ١٣/٣٩٧.

هل الأحرف السبعة موجودة في المصاحف العثمانية؟

الجواب على ذلك مرتبط بالمزاد من الأحرف السبعة:

فعلى قول ابن جرير الذي اخترناه وذكرناه قبل قليل أن الذي في المصاحف العثمانية انما هو الحرف الذي ارتضته الأمة زمن عثمان وهو الذي وافق العرضة الأخيرة. وأما الأحرف الأخرى فقد اندثرت، لأن القراءة بها لم تكن على سبيل الالزام، وانما كانت على سبيل الرخصة. قال ابو عمر ابن عبد البر: (الا ان مصحف عثمان الذي بأيدي الناس اليوم هو حرف واحد، وعلى هذا أهل العلم)[1].

أما القراءات فمن الجلي الواضح أن أكثرها موجود في المصحف، بل لقد اشترط القراء كما سبق ان ذكرنا موافقة القراءة لرسم مصحف عثمان حتى تكون قراءة صحيحة وهذا القول هو الأرجح والله أعلم.

وهناك قول آخر نقله العلامة أبو شامة المقدسي عن أحمد بن عمار المقرىء وهو من رجال القرن الخامس نشير إليه كما رواه عنه أبو شامة، قال ابن عمار:

[أصحُّ ما عليه الحذَّاقُ من أهل النظر في معنى ذلك أنَّ ما نحن عليه في وقتنا هذا من هذه القراءات هو بعض الحروف السبعة التي نزل عليها القرآن]. وتفسير ذلك أنَّ الحروف السبعة التي أخبر النبيُّ ﷺ أنَّ القرآن نزل عليها تجري على ضربين:

أحدهما: زيادة كلمة ونقص أخرى، وإبدال كلمة مكان أخرى، وتقديم كلمة على أخرى،

---

(١) «البرهان» ٢٢١/١ وانظر في هذا الموضوع «الاتقان» ٤٩/١ هذا وقد أنكر ابن حزم هذا القول في «الفصل» ٧٧/٢ ـ ٧٨ قال: [وأما قول من قال أبطل الأحرف الستة فقد كذب من قال ذلك. ولو فعل ذلك عثمان أو أراده لخرج عن الإسلام] وابن حزم مخطىء في قوله. سامحه الله وإيانا.

وذلك نحو ما روي...[1] فهذا الضرب وما أشبهه متروك لا تجوز القراءة به... والضرب الثاني: ما اختلف القراء فيه من إظهار، وإدغام، ورَوْم، وإشمام، وقصر، ومدّ، وتخفيف، وشدّ، وإبدال حركة بأخرى وياء بتاء، وواو بفاء، وما أشبه ذلك من الاختلاف المتقارب. فهذا الضرب هو المستعمل في زماننا هذا، وهو الذي عليه خط مصاحف الأمصار، سوى ما وقع فيه من اختلاف في حروف يسيرة.

فثبت بهذا أنّ هذه القراءات التي نقرؤها هي بعض من الحروف السبعة التي نزل عليها القرآن، استعملت لموافقتها المصحف الذي اجتمعت عليه الأمة، وترك ما سواها من الحروف السبعة لمخالفته لمرسوم خط المصحف، إذ ليس بواجب علينا القراءة بجميع الحروف السبعة التي نزل عليها القرآن، وإذ قد أباح النبي ﷺ لنا القراءة ببعضها دون بعض لقوله تعالى ﴿فاقرؤوا ما تيسر منه﴾[2] فصارت هذه القراءة المستعملة في وقتنا هذا هي التي تيسرت لنا بسبب ما رواه سلف الأمة، رضوان الله عليهم من جمع الناس على هذا المصحف، لقطع ما وقع بين الناس من الاختلاف وتكفير بعضهم لبعض][3].

تاريخ القراءات:

كان موضوع القراءات من أهم الموضوعات التي واجهت اللجنة الكريمة المكلفة بهذه المهمة العظيمة: مهمة كتابة المصحف.

وقد وجدت هذه اللجنة في عدم نقط المصحف وعدم شكله حلا جيداً لمشكلة استيعاب معظم القراءات، اذ أصبح المصحف في كتابته هذه متسعاً لعدد كبير من القراءات المتناقلة في عصرهم.

---

(١) وذكر أمثلة على الزيادة، والنقص والإبدال، والتقديم.

(٢) سورة المزمل: ٢٠.

(٣) «المرشد الوجيز» ١٤٠ ـ ١٤٢.

يقول ابن الجزري الدمشقي المتوفى سنة ٨٣٣ هـ:

(وجردت هذه المصاحف جميعها من النقط والشكل[١] ليحتملها ما صح نقله، وثبتت تلاوته عن النبي ﷺ، إذ كان الاعتماد على الحفظ لا على مجرد الخط. وكان من جملة الأحرف التي أشار النبي ﷺ بقوله: «أنزل هذا القرآن على سبعة أحرف» فكتبت المصاحف على اللفظ الذي استقرّ عليه في العرضة الأخيرة عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كما صرح به غير واحد من ائمة السلف كمحمد بن سيرين وغيره)[١].

ومن المعلوم أن الصحابة رضوان الله عليهم تفرقوا في الامصار المفتوحة فكان منهم فريق في العراق، وفريق في الشام، وفريق في اليمن.. وهكذا. وكان الصحابي يقرىء أهل المصر الذين يقيم فيهم القراءة التي تلقاها عن رسول الله ﷺ في مصحف عثمان. قال ابن الجزري: (وقرأ كل أهل مصر بما في مصحفهم، وتلقوا ما فيه عن الصحابة الذين تلقوه من في رسول الله ﷺ ثم قاموا بذلك مقام الصحابة الذين تلقوه عن النبي صلّى الله عليه وسلّم)[٢].

ونبغ عدد من التابعين يؤدون هذه المهمة في المدينة ومكة والبصرة والكوفة والشام.

قال ابن تيمية: (فانه ـ أي ابن مجاهد ـ أحب أن يجمع المشهور من قراءات الحرمين والعراقين والشام، اذ هذه الأمصار الخمسة هي التي خرج منها علم النبوة من القرآن وتفسيره، والحديث والفقه من الأعمال الباطنة والظاهرة وسائر العلوم الدينية)[٣].

ويقول ابن الجزري:

---

(١) «النشر» ١/٧ ـ ٨.

(٢) «النشر» ١/٨.

(٣) «فتاوى ابن تيمية» ١٣/٣٩٠.

(ثم تجرد قوم للقراءة والأخذ، واعتنوا بضبط القراءة أتم عناية، حتى صاروا في ذلك أئمة يقتدى بهم ويرحل اليهم ويؤخذ عنهم، أجمع أهل بلدهم على تلقي قراءتهم بالقبول، ولم يختلف عليهم فيها اثنان ولتصدّيهم للقراءة نسبت إليهم:

* فكان بالمدينة أبو جعفر يزيد بن القعقاع ت ١٣٠ هـ، ثم شيبة بن نصاح ت ١٣٠ هـ ثم نافع بن أبي نعيم ت ١٦٩ هـ.

* وكان بمكة عبد الله بن كثير ت ١٢٠ هـ، وحميد بن قيس الأعرج ت ١٣٠ هـ، ومحمد بن محيصن.

* وكان بالكوفة يحيى بن وثاب ت ١٠٣ هـ، وعاصم بن أبي النجود ت ١٥٦ هـ، وسليمان الأعمش ت ١٤٨ هـ، ثم حمزة ت ١٥٦ هـ ثم الكسائي ت ١٨٩ هـ.

* وكان بالبصرة عبد الله بن أبي اسحاق ت ١١٧ هـ، وعيسى بن عمر ت ١٤٩ هـ، وأبو عمرو ابن العلاء ت ١٥٤ هـ، ثم عاصم الجحدري ت ١٢٨ هـ، ثم يعقوب الحضرمي ت ٢٠٥ هـ.

* وكان بالشام عبد الله بن عامر ت ١١٨ هـ، وعطية بن قيس الكلابي ت ١٢١ هـ، واسماعيل بن عبدالله بن المهاجر، ثم يحيى بن الحارث الذماري ت ١٤٥ هـ، ثم شريح بن يزيد الحضرمي ت ٢٣٠ هـ.

ثم إنَّ القراء بعد هؤلاء المذكورين كثروا وتفرّقوا في البلاد وانتشروا وخلفهم أمم بعد أمم عرفت طبقاتهم...)[1].

ثم جاء أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى ٢٢٤ هـ فجمع القراءات في كتاب، وكان أول أمام معتبر يقوم بهذه المهمة، وكان عدد القراء الذين

---

(١) «النشر» ١/٩.

تعرض لهم في كتابه قرابة ٢٥ قارئاً مع السبعة المشهورين[١].

ثم قامت بعده محاولات عديدة قام بها أعلام من القراء، فمن ذلك ما جمعه أحمد بن جبير بن محمد الكوفي نزيل انطاكية والمتوفى ٢٥٨ هـ.

وجاء بعده القاضي إسماعيل بن اسحاق المالكي ت ٢٨٢ هـ صاحب قالون الذي ألف كتاباً في القراءات جمع فيه قراءة عشرين، منهم هؤلاء السبعة.

وكان بعده محمد بن جرير الطبري ت ٣١٠ هـ الذي جمع كتاباً حافلا سماه «الجامع» فيه نيف وعشرون قراءة.

وجاء بعده أبو بكر محمد بن أحمد بن عمر الداجوني ت ٣٢٤ هـ الذي جمع أيضاً كتاباً في القراءات.

وكان أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمي أول من اقتصر على قراءات هؤلاء السبعة فقط[٢]. وكان ابن مجاهد حافظاً مقدماً في علم القراءات، ولد في بغداد سنة ٢٤٥ هـ وكان كثير التلاميذ، شديد الورع، راغباً في الخير، توفي يوم الأربعاء في ٢٠ شعبان سنة ٣٢٤ هـ[٣].

قال ابن تيمية:

(فلما أراد ابن مجاهد ذلك جمع قراءات سبعة مشاهير من ائمة قراء هذه الأمصار ليكون ذلك موافقاً لعدد الحروف التي أنزل عليها القرآن، لا لاعتقاده أو اعتقاد غيره من العلماء أن القراءات السبع هي الحروف السبعة، أو أنَّ هؤلاء السبعة هم الذين لا يجوز أن يقرأ بغير قراءاتهم)[٤].

---

(١) «النشر» ١/٣٣ - ٣٤.

(٢) انظر «النشر» ١/٣٤ فقد ذكر ابن الجزري هناك أسماء الكتب التي ألفت في القراءات وقد أحصى واستقصى، جزاه الله خيراً.

(٣) انظر ترجمته في «غاية النهاية في طبقات القراء» ١/١٣٩.

(٤) «فتاوي ابن تيمية» ١٣/٣٩٠.

وقال مكي:

(من ظن أن قراءة هؤلاء القراء كنافع وعاصم هي الأحرف السبعة التي في الحديث فقد غلط غلطاً عظيماً)[1] وقال: (ويلزم من هذا أن ما خرج عن قراءة هؤلاء السبعة مما ثبت عن الأئمة ووافق خط المصحف أن لا يكون قرآنا وهذا غلط عظيم)[1] وقال: (والسبب في الاقتصار على السبعة مع ان في ائمة القراء من هو أجل منهم قدراً، أو مثلهم، أكثر من عددهم، ان الرواة عن الائمة كانوا كثيراً جداً فلما تقاصرت الهمم اقتصروا مما يوافق خط المصحف على ما يسهل حفظه وتنضبط القراءة به، فنظروا الى من اشتهر بالثقة، والأمانة، وطول العمر في ملازمة القراءة به، والاتفاق على الأخذ عنه، فأفردوا من كل مصر إماماً واحداً)[2].

* * *

ملاحظات:

ونختم هذا العرض السريع بملاحظات هامة:

١ ـ القراءات الصحيحة الثابتة كثيرة، وليست محصورة بالقراءات السبع التي جمعها ابن مجاهد، بل ربما كان كثير مما يروى عن غير هؤلاء السبعة أصح من كثير مما فيها[3] والجهلة هم الذين يظنون أن كل ما لم يأت في قراءات هؤلاء السبعة شاذ. وانما أوقع هؤلاء في الشبهة سوء فهمهم لحديث الأحرف. يقول ابن الجزري: (ولذلك كره كثير من الائمة المتقدمين اقتصار ابن مجاهد على سبعة من القراء وخطؤوه في ذلك)[3].

٢ ـ لا خلاف بين المسلمين في أن القراءات المشهورة الصحيحة الثابتة

---

(١) «الاتقان» ١/٨٠ ـ ٨١. وانظر «الابانة عن معاني القراءات» لمكي ص ٣٦.

(٢) «الاتقان» ١/٨١.

(٣) انظر «النشر» ١/٣٦ و«المرشد الوجيز» ١٥٠ وما بعدها.

بالشروط المعروفة لا يمكن أن تتناقض بحال من الأحوال[1].

ورأى العلماء ان اختلافها واحد من أمرين:

أ ـ إما أن يكون عائداً للفظ، والمعنى واحد، مثل، الامالة وعدمها، والادغام وعدمه. وترقيق اللامات وتغليظها.

ب ـ وإما أن يكون اختلافها في المعنى ولكن بشكل لا تناقض فيه مثل (باعد) و (بعد)[2] وهذه القراءات الثابتة التي يتغاير فيها المعنى، كلها حق؛ يجب الايمان بها كلها، واتباع ما تضمنته من المعنى علماً وعملاً، ولا يجوز ترك موجب أحداها لأجل الأخرى.

٣ ـ القراءات كلها من الحرف الذي وصل إلينا، ولكن كثيراً من القراءات الصحيحة لم تستوعبه القراءات السبع أو العشر.

* * *

حِكَم تعدد القراءات[3]:

١ ـ التخفيف والتيسير على هذه الامة في قراءة القرآن: ففي الناس المرأة والشيخ والانسان العادي ممن لا يقدرون على النطق بغير لهجاتهم وقد آنس الرسول ﷺ ذلك، فطالب من ربه المعافاة فاستجاب له، وخفف على أمته، وانزل القرآن على قراءات متعددة.

٢ ـ شرح الالفاظ: فمثلا القراءة التي وردت الآية فيها كما يأتي:

---

(١) وكذلك الأحرف السبعة أياً كان تفسيرها، لا يمكن أن تتناقض أبداً.

(٢) الآية ١٩ من سورة سبأ. والآية بتمامها: ﴿فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إنّ في ذلك لآيات لكل صبّار شكور﴾ وانظر القراءات في كلمة (باعد) في «البحر المحيط» ٧/٢٧٢ ـ ٢٧٣. و«النشر» ٢/٣٥٠.

(٣) انظر تفصيل ذلك في «النشر» ١/٥٢ و«الاتقان» ١/٨٢ و«مناهل العرفان» ١/١٣٨.

(وتكون الجبال كالصوف المنفوش)[1] أفادت في شرح كلمة (العهن) الواردة في القراءة الأخرى المعروفة: ﴿وتكونُ الجبالُ كالعهنِ المنفوش﴾[1].

٣ ـ بيان حكم من الاحكام: مثل قوله تعالى ﴿وإنْ كانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالةً أو امرأةٌ وَلَهُ أخٌ أوْ أخْتٌ فلكلِّ واحدٍ منهما السُّدُسُ﴾[2].

قرأ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه «وله أخ أو اخت من أمه» بزيادة (من أمه)[3].

وكذلك قوله تعالى ﴿فاعتزِلُوا النساءَ في المحيضِ ولا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾[4] فقراءة (يطهرن) بالتشديد مبينة لمعنى قراءة التخفيف.

٤ ـ دفع توهم ما ليس مراداً: مثل قوله تعالى ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنُوا إذَا نُودِيَ للصلاةِ منْ يومِ الجمعةِ فاسْعَوْا إلى ذكرِ الله﴾[5] قرىء «فامضوا الى ذكر الله» فالقراءة الأولى توهم وجوب السرعة في المشي إلى صلاة الجمعة، ولكن القراءة الثانية رفعت هذا التوهم.

٥ ـ تحدي القرآن جميع العرب، فلو أتى بلغة دون لغة لقال الذين لم يأت بلغتهم: لو أتى بلغتنا لأتينا بمثله.

٦ ـ ان وجود القراءات حمل النحويين على توجيهها، فأغنى هذا التوجيه العربية. قال الزركشي: (وقد اعتنى بتوجيه القراءات الأئمة، وأفردوا فيه كتبا. منها كتاب «الحجة» لأبي علي الفارسي وكتاب

---

(١) سورة القارعة: ٥.
(٢) سورة النساء ١٢.
(٣) انظر «تفسير الطبري» ٦٢/٨.
(٤) سورة البقرة: ٢٢٢.
(٥) سورة الجمعة: ٩.

« الكشف » لمكي وكتاب « المحتسب في توجيه الشواذ » لابن جني)[1] .

٧ ـ ومن فوائد تعدد القراءات اظهار سر الله في كتابه وصيانته له عن التبديل والاختلاف مع كونه على هذه الأوجه الكثيرة.

القراء العشرة ورواتهم:

القراء العشرة هم القراء الذين عني العلماء بنقل قراءاتهم وهم على قسمين:

* سبعة اختارهم ابن مجاهد.

* وثلاثة اختارهم ابن الجزري فكملوا العشرة.

وسنورد فيما يأتي أسماء هؤلاء القراء وأسماء رواتهم وسنوات وفياتهم في جدولين نلحق بكل منهما بعض الملاحظات:

١ ـ جدول بأسماء القراء السبعة ورواتهم:

١ ـ نافع بن عبد الرحمن المدني (ت ١٦٩)	وراوياه هما:
	١ ـ قالون: عيسى بن ميناء ت ٢٢٠
	٢ ـ ورش: عثمان بن سعيد ت ١٩٧
٢ ـ عبدالله بن كثير المكي (ت ١٢٠)	وراوياه هما:
	١ ـ قنبل: محمد بن عبد الرحمن ت بعد ٢٨٠
	٢ ـ البزي: احمد بن محمد ت ٢٤٠
٣ ـ أبو عمرو بن العلاء البصري (ت ١٥٤)	وراوياه هما:
	١ ـ الدوري: حفص بن عمر ت ٢٥٠.

(١) « البرهان » ١/٣٣٩ و « الاتقان » ١/٨٢ ـ ٨٣ وقد حقق « الكشف » محي الدين رمضان ونشره مجمع اللغة العربية بدمشق. ١٩٧٤ ثم نشرته مؤسسة الرسالة ببيروت ١٩٨١.

٢ ـ السوسي: صالح بن زياد ت ٢٦١.

٤ ـ عبدالله بن عامر الشامي (ت ١١٨)

وراوياه هما:
١ ـ ابن ذكوان: عبدالله بن أحمد ت ٢٤٢.
٢ ـ ابن عمار: هشام بن عمار ت ٢٤٥.

٥ ـ عاصم بن أبي النجود الكوفي (ت ١٢٧ هـ)

وراوياه هما:
١ ـ شعبة بن عياش ت ١٩٤
٢ ـ حفص بن سليمان ت قريباً من ١٩٠

٦ ـ حمزة بن حبيب الزيات الكوفي (ت ١٥٦)

وراوياه هما:
١ ـ خلف بن هشام البزار ت ٢٢٩
٢ ـ خلاد بن خالد ت ٢٢٠

٧ ـ علي بن حمزة الكسائي الكوفي (ت ١٨٩)

وراوياه هما:
١ ـ الدوري: (انظره عند أبي عمرو ابن العلاء)
٢ ـ الليث بن خالد أبو الحارث ت ٢٤٠.

الملاحظات حول القراء السبعة:

١ ـ ان هؤلاء القراء السبعة من أمصار العلم المعروفة التي انبثق منها علم النبوة ـ كما يقول ابن تيمية ـ وهي: مكة والمدينة، والكوفة والبصرة، والشام، ويلاحظ من معرفة أحوال هؤلاء القراء ان حظ الكوفة أكبر من غيرها من الأمصار اذ كان منها ثلاثة من سبعة وهم: عاصم وحمزة والكسائي.

٢ ـ ان هؤلاء القراء جميعاً كانوا من رجال القرن الثاني الهجري، أدرك معظمهم القرن الأول، وتلقوا عن الصحابة، ولذلك فقد كان معظمهم من التابعين، وأولهم وفاة هو ابن عامر توفي سنة ١١٨ وآخرهم وفاة الكسائي توفي سنة ١٨٩.

٣ ـ ان هؤلاء القراء من الموالي باستثناء قارئين وهما ابو عمرو بن العلاء وعبدالله بن عامر.

٤ ـ ان هؤلاء القراء جميعاً كانوا من المعمرين الذين أتيح لهم أن يقرئوا الناس القرآن مدة طويلة، وتخرجت عليهم أجيال.

٥ ـ ان هؤلاء القراء كانوا جميعاً من العلم والورع والاستقامة والخلق بالمكان الأسمى.

٦ ـ يلاحظ ان بعض القراء تلقى رواتهم القراءة عنهم مباشرة، وبعضهم تلقى الرواة المذكورون القراءة عنهم بالواسطة.

ب ـ جدول بأسماء القراء الثلاثة المكملين للعشرة:

١ ـ ابو جعفر يزيد بن القعقاع المخزومي المدني (ت ١٣٠)	وراوياه هما: ١ ـ عيسى بن وردان (ت ١٦٠) ٢ ـ سليمان بن حجاز (ت بعد ١٧٠)
٢ ـ يعقوب بن اسحاق الحضرمي البصري (ت ٢٠٥)	وراوياه هما: ١ ـ رويس محمد بن المتوكل (ت ٢٣٨) ٢ ـ روح بن عبد المؤمن الهذلي (ت ٢٣٥)

٣ ـ خلف بن هشام البزار البغدادي (ت ٢٢٩) وانظره عند حمزة الكوفي في الجدول السابق.

وراوياه هما:

١ ـ اسحاق بن ابراهيم بن عثمان الوراق (ت ٢٨٦)

٢ ـ ادريس بن عبد الكريم الحداد (ت ٢٩٢)

الملاحظات حول القراء الثلاثة:

١ ـ هؤلاء القراء الثلاثة من رجال القرن الثاني الهجري فآخرهم وفاة توفي بالربع الثاني من القرن الثالث الهجري.

٢ ـ يلاحظ ان في هؤلاء القراء من ينتسب الى المدينة والبصرة بالاضافة الى خلف الذي كان راويا لحمزة الكوفي.

٣ ـ كذلك كان هؤلاء القراء الثلاثة من الفضل والتقوى والمعرفة بمكانة عالية شأنهم شأن سابقيهم.

* * *